[فصل فى الوعد ومذاهب الناس فيه]

وإذ قد فرغت من شرح ألفاظه فى إنجاز الوعد فى المثل ، وما اتّصل به ، فلنذكر مذاهبَهم فى ذلك .

فأكثرهم على إنجاز الوعد ، وقد ذكر فيما هو مستقبل :

* وبِع آجلاً منك بالعاجِلِ *

وقال : وإذا خُيِّرتَ بين ذَرّة منقودة ، ودُرّة موعودةَ فَمِلْ إلى النقد .

وقال جرير :

إنِّى لأرجُو منكَ خيراً عاجلاً والنَّفسُ مولَعةٌ بحبِّ العاجلِ (١)

قال آخر :

ولا شكَّ أنَّ الخيرَ منك سجيّةٌ ولكنّ خير الخير عندى المعجَّلُ

وقال آخر :

أتَى زائراً من غير وعدٍ وقال لى: أجِلَّكَ عن تعذيب قَلْبِكَ بالوعْدِ

وبعضهم يرى أن يكون بين الوعد والإنجاز مهلة ؛ ومنه أنّ منصور بن زياد كلَّم يحيى بن خالد فى حاجة رجل ، فقال له: عدْه عنّى قضاءها ، فقال منصور بن زياد : وما يدعوك إلى العِدة مع القدرة ! فقال : هذا قول مَنْ لا يعرف موقع الصنائع من القلوب ، إنّ الحاجة إذا لم يتقدَّمها وعْد يُنتظَر به نجحُها ، لم تتحدّث النفس بسرورها ؛ إنّ الوعد مطعَم والإنجاز طعام ، وليس من فاجأه طعام كمن وجد رائحته وتطعّمه ثم طعِمه ، فدع الحاجة تختمر بالوعد ، ليكون لها عند المصطَنع حسن موقع ولطف محلّ .

(١) ديوانه ٤٩٥ ، من قصيدة له فى مدح عمر بن عبد العزيز .

قال ابن الكلبيّ لهشام بن عبد الملك : يا أمير المؤمنين ، لا تصنع إلىّ معروفاً حتى تعدَنى به ، فإنه لم يأتنى منك سيْبٌ على غير وعد إلّا هان علىّ قدره ، وقلّ منّى شكره ، فقال له : لِمَ قلت ذلك ، وقد قال سيّد قومك أبو مسلم الخولانىّ : إنّ أنجح المعروف فى القلوب ، وأبرده على الأكباد معروف غيرُ منتظَر بوعدٍ لا يكدّره مَطْل .

ووعد المهدىّ[1] عيسى بن دأب جارية ثم وهبها له ، فأنشده عبد الله بن مصعب الزّبيرىّ [قول مضرّس الأسدىّ][2] :

ولا تيأسنْ من صالحٍ أنْ تنالَهُ وإن كان قِدْمًا بين أيدٍ تبادرُه

فقال : يُدفع لعبد الله جارية أخرى ، فقال الزّبيرىّ :

وأنجزُ خيرِ الناس مَنْ قبل وعده أراحك من مَطْلٍ ومن طولِ كَدِّهِ

فقال له عيسى بن دأب : ما صنعت شيئاً ! هلّا قلت :

حلاوة الفضل بوعدٍ ينجـــزُ لا خير فى العرف كنهب يُنْهَزُ

فقال المهدىّ :

الوعــدُ أحسنُ ما يكو ن إذا تقدّمـــه ضمانُ

وقال بعض البلغاء : دع الوعد يركض ثلاثاً ، فإن كثير العطاء قبل الوعد قليل ، وجليله حقير .

وقال يحيى بن خالد : من لم يبت مسروراً بوعد ، لم يجد للصنيعة مطعما وفيه يقول أبو قابوس النّصرانىّ :

رأيتُ يحيى أتمّ الله نعمتَـــه عليه يأتى الذى لم يأتِهِ أحـــدُ

ينْسَى الّذى كان من معروفه أبداً إلى الرجال ولا ينسى الذى يعدُ

(١) ط : « المستهدى » تحريف .
(٢) من معجم الأدباء
(٣) الخبر فى معجم الأدباء ١٦ : ١٥٤

وقال الحارثيّ :

وما رَوْضَة داريَّةٌ أسـديَّةٌ منمنمَةٌ زهراء ذات ثرى صَعْدِ
بأحسنَ من حُرّ تضمّن حاجةً لحرّ ، فأوْفَى بالنّجاح مع الوعْدِ

وقال ابن رشيق :

أحسنتَ فى تأخيرها مِنَّةً لو لم تؤخّرْ لم تكن كامِلَهْ[1]
وكيف لا يحسنُ تأخيرها بعد يقينى أنها حاصِلَهْ!
وجَنَّة الفردوس يدعَى بها آجلة للمرء ، لا عاجِلِهْ

وقال رجل لأبى عمرو بن العلاء: وعدتَنى بأمر فلم تنجزه ! فقال أبو عمرو : من أولَى منّا بالعتب ؟ أنا وإلا أنت ! قال : أنا ؛ قال أبو عمرو : لا والله بل أنا ، قال : وكيف ؟ قال : لأنى وعدتك وعداً فأنت تفرح بالوعد ، فبِتَّ ليْلَتَكَ جذلانَ مسروراً وبتُّ أنا بهمّ الإنجاز ، فبتُّ ليلتى مفكراً مغموماً بما عاق الدّهر من بلوغ الإرادة فيه ، فلقيتَنِى مدِلاًّ ولقيتك مستحيياً .

واعتذر بعضُ الرؤساء لأبى علىّ البصرىّ من تأخّر وعد ، فقال : فى شكر ما تقدَّمَ من إحسانك شاغل عن استبطاء ما تأخّر منه .

* * *

فنَشَأَتْ لِي مِنْ فُكاهَتِهِ نَشْوَةُ غَرَامٍ ، سَهَّلَتْ عَلَيَّ ائتناف اغْتِرَامٍ ، فَجَرَّدْتُ دِينَارًا آخَرَ وَقُلْتُ له : هَلْ لَكَ فِي أَن تَذمَّهُ ، ثُمَّ تَضُمَّهُ ؟ فأنشدَ مُرْتجِلاً ، وَشدَا عجِلاً :

* *

(١) العمدة ٢ : ١٢٨ ، ١٢٩ .

قوله : «فنشأت»، أى ظهرت وبدت. فكاهة: مزاح. نشوة غرام: سكرة شوق ، والغرام : الحبّ المعذِّب للقلب . ائتناف : استقبال . اغترام : غرْم . ثم ذكر أن يذمه ثم يضمّه ، وقد نظمهما الزاهد بن عمران فى قوله :

إنّ المـــؤونة والحسابَ كلاَهما قرنا بهذا الدّرهم المذمـــومِ
كَلِف الأنام بذمّه وبضمِّـــه فتعجّبوا لمذمّمٍ مضمـــومِ

وقال ابن شرف فى الدينار والدرهم :

ألاَ رُبَّ شىءٍ فيه من أحرف اسمِه نواهٍ لنا عنه وزجـــرٌ وإنذارُ
فُتِنَّا بدينارٍ وهِمْنَـــا بدرهمٍ وآخِر ذا هَمٌّ ، وآخِـــر ذا نَارُ

وقال ابن رشيق :

صحّفتُ دالين من دينـ ـارٍ يلوح ودرهمْ
فقال لى ذلكم «ذى نار» وذا قال: «ذَرْهم»

وابن رشيق وابن شَرَف أديبا القَيْرَوان ، يَجْمَعهما البلَد والزّمَان ، وكانا مرّة يتصاحبان ، ومرّة يتباغضان .

وقال ابن رشيق فى مدح الدينار والدرهم :

صديقُ المرء كالدينارِ طبعـــاً وكيف يفارق المرء الطباعَا !
تراه إذا أقام يقـــيمُ جاهاً وإن فارقتَـــه أَجْدى انتفاعَا

أخذه من قول كُشاجم :

ومريدٍ مَن أبـاه ومهينٍ من أجَـلّه[1]
فهو كالدّينار لا يُكـ ـرِمُ إلا من أذلّه

(١) ديوانه ١٥٣

وقال آخر :

النارُ آخـــر دينارٍ نطقتَ به والهمّ آخر هذا الدِّرهم الجـارِى
والمرء ما لم يفد من غيره ورعًا مقسّم القلب بين الهمِّ والنَّـارِ

قوله : «مرتجلا» ، أى من غير تفكر . شدا : ابتدأ الغناء وطرّب بنشيده

* * *

تَبًّا لَهُ مِنْ خادِعٍ مُماذِقِ أَصْفَرَ ذِى وَجْهَيْنِ كَالمُنَافِقِ
يبدو بِوَصْفَيْنِ لِعَيْنِ الرَّامِقِ زينةِ مَعْشُوقٍ وَلَوْنِ عَاشِقِ
وَحُبُّهُ عِنْدَ ذَوِى الحقائقِ يَدْعُو إِلَى ارْتِكابِ سُخْطِ الخالِقِ
لَوْلاَهُ لَمْ تُقْطَعْ يَمِينُ سارِقِ وَلاَ بَدَتْ مَظْلِمَةٌ مِنْ فاسِقِ
وَلا اشْمأَزَّ باخِلٌ من طارِقِ وَلا شكا المطول مَطْلَ العائقِ
وَلا اسْتُعِيذَ مِن حسودٍ رَاشِقِ وَشَرُّ مَا فِيهِ مِنَ الخَلاَئِقِ
أَنْ لَيْسَ يُغْنِى عَنْكَ فى المَضايِقِ إِلَّا إِذا فَرَّ فِرَارَ الآبِقِ
واهًا لِمَنْ يَقْذِفُهُ من حَالِقِ وَمَنْ إِذَا نَاجَاهُ نَجْوَى الوَامِقِ
قَالَ لَهُ قَوْلَ المحقِّ الصَّادِقِ : لاَ رأى فى وَصلِكَ لِى فَفَارِقِ

* * *

تبًا : أى خسراً . مماذق : لا يصفو ودّه لصاحبه ، وقد مذَقَ وُدّه ، إذا لم يخلصه ، ومذق اللبن : خلطه بالماء ، والمذيق : المخلوط . أصفر ذى وجهين ، قال

أبو هُريرة رضى الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «شرّ النّاسِ ذو الوجهين ،يأتى هؤلاء بوجهٍ ، وهؤلاء بوجهٍ ».

ووقع هذا فى نثر البديع ، قال فى مخاطبة أبى الفتح عيسى[١] : أظعناً تريد ؟ قلت : إى والله ، قال : أخْصَبَ رائدُك، ولاضلّ قائدك ، فمتى عزمت ؟ قلت: غداةِ غدٍ ، فقال :

صباحُ الله لا صبـــحُ انطلاقِ وطيرُ الوصل لا طيرُ الفـــراقِ
وقال السَّعد لا يعـــدوكَ دأباً يصاحبكم إلى يومِ التّلاقِ[٢]

فأين تريد ؟ قلت : الوطنَ ، قال : بُلِّغْتَ الوطن ، وقضيتَ الوطر ، فمتى العود ؟ قلت : القابِل ، فقال: طويتَ الرَّيط[٣]، وثنيت المخيط ، فأين أنت من الكرَم ؟ قلت : بحيثُ أردتَ ، فقال : إذا رجعك الله سالماً من هذا الطريق ؛ فاستصحب لى عدوّا فى ثياب صديق ، من نجار الصُّفْر ، يدعو إلى الكفر ، ويرقص على الظُّفْر ، كدارة العين ، يحطّ ثِقَلَ الدِّيْن، وينافق بوجهين . فعلمت أنه يلتمس ديناراً ، فقلت : ذلك لك نقداً ، ومثله وعداً ، فأنشأ يقول :

رأيك ممّا خطبتُ أعْلَى لا زلتَ للمكرُمات أهلا
صَلُبْتَ عوداً ،ودمت فرداً[٤] وطبت فرعاً وطبت أصلا
ياواحدَ الدهـــر والمعالى لا لَقِيَ الدَّهر منك ثُكْلاً

قوله : « عدوًّا فى ثياب صديق » من قول أبى نواس :

إذا امتحنَ الدّنيا لبيبٌ تكشَّفَتْ لَهُ عن عدوٍّ فى ثياب صديقِ[٥]

قوله : «الرامق» أى الناظر ،ورمقت الشىء رمقاً أتبعت النظر إليه . وزينة

(١) عيسى بن هشام صاحب البديع الهمذانى فى المقامات ص ٢٢ ، ٢٣
(٢) هذا البيت ساقط من المقامات (٣) الريط : جمع ريطة ، وهى الملاءة
(٤) المقامات : « جودا »
(٥) ديوانه ١٩٢ .

المعشوق التى فى الدينار : نقشه وتزيينه ، ولون العاشق: صفرته، فالناظر فى الدينار يرى فى الظاهر زينَته فيهواه ، فيقع على ما وقع عليه باطن العاشق من العذاب والغرام ، ويدلّ على ذلك صفرته الظّاهرة عليه . وقال ابن ظفر : زينة المعشوق غرور مدعاة إلى التهوّر فى الغرام ، ولون العاشق وهو الأصفر دليل على ما أسرّ من شاغف الكلف ، فالغافل ينظر من الدينار مثل زينة المعشوق مجرّدة عن عاقبتها، فيصيده الهوى ، والعاقل ينظر منه إلى لون العاشق ، فيستدلّ على باطن الجوى . ذوى الحقائق ، يعنى أهل الرشد والعلم ، والذين ينظرون إلى ما فى الدنيا بعين الحقيقة .

ثم لولا حبّ الدنيا ما سرق السارق ، فيستوجب قطع يدِه ، أو بعض أعضائه ، واليد يجب قطعها بربع دينار ذهب . ومن مُلَح السّرقة أنّ الجاحظ حكى أن رجلين كان أحدهما أيمنَ ، والآخر أعسر ، فكان الأيمن يفخر على الأعسر ، فأخذا فى سرقة ، فقطِعت أيمانهما ،فكان الأعسر يعمل بيساره أعمالَه كلها ، والأيمن لا يستطيع أن يعمل بيساره شيئاً ، ففخر الأعسرُ عليه بذلك ، فقال له الأيمن : ما علمت أنّ للأعسر فضيلة إلا أن يَسْرِق فيؤخذ فتقطع يمينه .

الفاسق : الخارج عن الطاعة إلى ركوب المعصية أو عن الإيمان إلى الكفر، أُخِذَ من فَسَقت الرطبة ، إذا خرجت من قشرها . وقال قوم : الفاسق الجائر ، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ إلا إبليسَ كان من الجِنِّ ففسَقَ عن أمر ربه ﴾[1] ، أى جار ، عنه قال رؤبة :

يَهْوِين فى نجدٍ وغَوْرٍ غائرا فواسقاً عن قَصْدِها جوائرَا[2]

(١) سورة الكهف ٥٠

(٢) الفائق ، اللسان ـ فسق

اشمأزّ : انقبض . باخل : شحيح ، وبخيل أكثر من باخل . طارق : قاصد بليل . المَطْل : تأخير الحق الواجب ، وأصله من مَطل القينُ الحديدَ فى النار ، إذا مدَّه وطوّله . العائق : الحابس ، وقدعاقه عن الشيء إذا حبسه . راشق : عائن ، وأصله الرامى ، فجعله للذى يصيب الناس بعينه . واستُعيذ : قرئ عليه المعوّذتان ، وهما : «قل أعوذ برب الفلق» ، و «قل أعوذ برب الناس» . الخلائق : الطبائع ، واحدتها خليقة . الآبق : الهارب ، وأبقَ العبد يأبِق إباقاً : زال عن مولاه . وفى معنى فراق الدينار قول الأخطل :

ومعشـــوق يرقص كلَّ يوم ترى فى وجهه أبداً كلاماً[1]
إذا فارقتَه أجـــداكَ خيراً ولا يجدى عليك إذا أقاماَ

وهذا من قولِ الحسن البصرىّ ، وقد رأى رجلاً يقلّب درهماً ، فقال له : أتحبّ درهمك هذا ؟ قال : نعم ، قال : فإنه ليس لك حتى يخرج من يدك .

واهاً : تعجّب ، معناه ما أعجب مَنْ يقذفه . حالق : جبل أملس مُنيف . ناجاه : حدّثه سرًّا . الوامق : المحبّ ، وقد ومق يَمِقَ مِقَةً . المحقّ : القائل الحق .

* * *

فَقُلْتَ لَهُ : ما أَغْزَرَ وَبْلَكَ ! فَقَالَ : وَالشَّرْطُ أَمْلَكُ ، فَنَفَحْتُه بالدِّينارِ الثَّانِي ، وقُلْتُ لهُ : عَوِّذْهُمَا بالْمَثَانِي ، فَأَلْقَاهُ فِي فمِهِ ، وَقَرَنَهُ بِتَوْءَمِهِ ، وَانْكَفَأَ يَحْمَدُ مَغْدَاه ، وَيَمْدَحُ النَّادِيَ وَنَدَاهُ .

* * *

قوله : «ما أغزر وَبْلك» ، أى ما أكثر بلاغتك . وأملَك : ألزم وأحقّ ، يريد أن شرطك الذى شرطت من إعطائى ديناراً آخر إن ذممته ، قد ألزمك

(١) لم أجدهما فى ديوانه .

بذمّى له. والشرط أملَكمثل[1] ، وأول من قاله الأفعى الجرهمىّ ، وكان حكيماً للعرب ، فتحاكم إليه خصمان، فاشترط أحدهما وأراد ألّا يلتزمه ، فقال الأفعى : الشرط أملك ، وتقديره الشرط أملك لأمرك منك .

نفحته: رميته . عوّذهما : رقاهما . والمثانى : أمّ القرآن ، سميت بذلك لأنها تثنى فى الصلاة ، واحتصّها لأنه أشار عليه أن يحمد الله على أخذ الدينار ، فكأنه قال : اقرأ الحمد لله رب العالمين ، شكراً لله عليهما وتعويذاً لهما .

وهذا كما قال ابن رشيق فى غلام جميل :

معتدل القامــة والقدِّ مورّد الوجنة والخــدِّ
لو وضع الوردُ على خدّه ما عرف الخدّ من الوردِ
قل للّذى يعجب من حُسْنه اقرأ عليه سورة الحمدِ

وله فى مثله :

شكوت بالحبّ إلى ظالمى فقال لى مستهزئاً : ما هو !
قلت : غرام ثابت ، قال لى: اقرأ عليه « قل هو الله »

وقال أبو عبيد : المثانى فى كتاب الله ثلاثة أشياء : القرآن ، سمّاه الله المثانى فى قوله تعالى: ﴿ كتاباً مُتَشَابِهاً مثانى﴾ ، وسمّى الفاتحة «مثانى» فى قوله: ﴿ سَبْعاً من المثانى﴾ وروى عثمان وابن عباس وابن مسعود عنه صلى الله عليه وسلم. « إن المثانىَ من السور ما دون المئين»، كأنها جعلت مبادىء والتى تليها مثانى .

قوله : «بتوءمه» ، أى بأخيه ، يعنى الدّينار الأول . انكفأ : انقلب وولّى ، معناه بكوره وسيره فى الغدوّ . النادى ونداه : المجلس وكرم أهله .

(١) الميدانى ١ : ٣٦٧

[فصل فى مدح الشئ وذمّه]

ونريد أن نأتىَ بفصل فى مدح الشىء وذمّه على حكم ما مدح الحريرىّ الدّينار وذمّه ، ونبيّن مذهب العرب وأهل الأدب فى ذلك ، فقد ألّف ابن رشيق فيه كتاباً جلبت فى هذا الكتاب عيونه .

قال أبو عثمان الجاحظ: العربىّ يعاف الشىء ويهجو به غيره ، فإن ابتلِىَ به فخر به ، ولكنه لا يفخر به لنفسه من جهة ماهجا به غيرَه ، فافهم هذا ؛ فإنّ الناس يغلطون على العرب ، ويزعمون أنّهم يمدحون بالشىء الذى يهجون به ، وهذا باطل ؛ ليس شىء إلا وله وجهان ، فإذا مدحوا ذكروا أحسنَ الوجهين ، وإذا ذمّوا ذكروا أقبح الوجهين .

قال ابن رشيق : وأكثر ما تجرى هذه المادح والمذامّ على جهة المنافقة ، لا على جهة المناصفة ، ومن باب المسامحة لا من باب المشاححة ، وإلاّ فالشىء لا يوافق ضده ، فيكون الحسن قبيحاً فى حالة واحدة ، والمدح ذمًّا لمعنى واحد ، لكن لكلّ شىء ـ كما ذكر الجاحظ ـ مساوىء ومحاسن ؛ كما فعل عمرو بن الأهتم بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد استشهده الزِّبرقان بن بدر على ما ادّعاه من الشرف فى قومه ، قال عمرو : أجل يارسول الله ، إنه مانعٌ حوْزته ، مطاع فى أنديته ، شديد العارضة . فقال الزبرقان : أما والله لقد علم أكثر مما قال ؛ ولكن حسدنى شرفى ، فقال عمرو : أما وقد قال ما قال ، فو الله ماعلمتهُ إلا ضيِّق الطَعَن زمِرَ المروءة[1] ، لئيم الخال ، حديث الغنى . فرأى الكراهة فى عين رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا اختلف قوله ، فقال : يا رسولَ الله ، رضيتُ فقلت أحسنَ ماعلمت ، وغضبت فقلت أقبح ما علمت ؛ وما كذبت فى الأولى ، ولقد صدقت فى الثانية ، فقال رسول الله صلى عليه وسلم : إن من البيان لسحراً ، وإن من الشعر لحكمة[2] .

وكتب يزيد بن معاوية فى صدر كتابه إلى عبيد الله بن زياد ـ وقد ولاّه محاربةَ الحسين بن علىّ رضى الله عنهما ـ وكان قبل ذلك يسىء الرأى فيه : أمّا

(١) زمر المروءة : قليلها ، وفى ط : «زمن» تحريف . (٢) جمهرة الأمثال ١ : ١٣ .

بعد ، فإن المسبوب يوما ممدوح ، وإنّ الممدوح يوما مسبوب .

ويروى أن عيسى عليه الصلاة والسلام لم يَعِبْ شيئاً قط ، فمرّ يوماً بكلب ميّت ، فقال أصحابه : ما أنتنَ ريحه ! فقال عيسى عليه الصلاة والسلام : ما أحسن بياضَ أسنانه !

وقالت للحضين بن منذر امرأة : كيف سدتَ وأنت دميم بخيل ! فقال : لأنى سديد الرأى ، شديد الإقدام .

وقال مسلمة بن عبد الملك لأخيه هشام : كيف تطمع فى الخلافة وأنت بخيل ، وأنت جبان ! فقال : لأنى حليم ، وأنا عفيف ؛ فسلّم لعائبه ما ادّعاه من من مساوئه ، وذكر من محاسنه مالم ينازَعْ فيه .

صعد خالد بن عبد الله القسرىّ منبر مكة يوم الجمعة ، وهو أمير للوليد بن عبد الملك بن مروان ، فأثنَى على الحجّاج خيراً ، فلما كانت الجمعة الثانية وقد مات الوليد ، ورد عليه كتاب سليمان يأمره بشتْم الحجّاج وذكْر عيوبه ، وإظهار البراءة منه ، فصعد المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : إنّ إبليس كان يُظهر من طاعة الله عزّ وجلّ ما كانت الملائكة ترى له به عليهم فضلاً ، وكان الله قد علم من غشّه ما خَفِىَ عن الملائكة ، فلما أراد الله فضيحَته ابتلاه بالسُّجود لآدم ، فظهر لهم ما كان يخفِيه منهم ، فلعنوه . وإنّ الحجّاج كان يظهر من طاعة أمير المؤمنين ما كنّا نرى له به فضلا ، وكان الله قد أطلع أمير المؤمنين من غِلّه وغشّه على ما خفِىَ عنّا ؛ فلما أراد فضيحته أجرى ذلك على يد أمير المؤمنين . فالعنوه لعنه الله . ثم نزل .

ومرّ غيلان بن خرَشة الضّبّى مع عبد الله بن عامر بنهر أم عبد الله الذى يشقّ البصرة ، فقال عبد الله : ما أصلحَ هذا النّهر لأهل هذا المصر ! فقال غيلان : أجل والله أيّها الأمير ؛ يتعلّم العَوْمَ فيه صبيانُهم ، ويكون لسقائهم ولسيل مياههم ، ويأتيهم بميرتهم ؛ ثم عاد ابن عامر فسايَر زيادا عليه ، فقال زياد : ما أضرّ هذا

النهر لأهل هذا المِصر ! فقال : أجلْ والله أيّها الأمير ، تنزّ منه دورهم ، ويغرق فيه صبيانهم ، ويكثر لأجله بَعوضهم .

ومدح الجاحظ العَروض ، فقال: هو ميزان الشِّعر ومعيارُه، به يعرَفُ الصحيح من السقيم، والعليل من السايم ، وعليه مدار القريض والشعر ، وبه يُسلَمُ من الأوَد والكسر . ثم ذمّه فقال : هو عِلْم مولّد ، وأدب مستبرَد ، ومذهب مرفوض ، تستنكره العقول ، مستفعلن فعول ، من غيره فائدة ولامحصول .

وكان العباس بن علىّ عمّ المنصور يأخذ الكأس بيده ، ثم يقول : أمّا النفس فتسمحين ، وأما الهمّ فتطردين ، أفتراك منّى تُفْلتين ! ثم يشربها .

وشكا أبو العنياء حاله إلى عبد الله بن سليمان ، فقال : أليس قد كتبنا لك إلى إبراهيم بن المدبّر ! قال : كتبتَ إلى رجل قد حَصَر من همّته طول الفقر ، وذلّ الأسر ، ومعاناة مِحَن الدهر ، فأخففت فى طلبتى . قال : أنت اخترته ، قال : وما علمى أعزّ الله الأمير فى ذلك ! قد اختار موسى قومه سبعين رجلاً وما كان منهم رشيد ، واختار رسول صلى الله عليه وسلم ابنَ أبى سرْح كاتباً فرجع إلى المشركين مرتدًّا ، واختار علىّ رضى الله عنه أبا موسى حَكَماً ، فحكم عليه .

* * *

قَالَ الْحَارِثُ بن هَمَّامٍ : فناجانى قَلْبِي بَأَنَّهُ أَبُو زَيْدٍ ، وَأَنَّ تَعَارُجَه لِكَيْدٍ . فاستعدتُه وَقُلْتُ لَهُ : قَدْ عُرِفتَ بِوَشْيِكَ ، فاسْتَقِمْ فِي مَشْيِكَ . فقال: إن كُنْتَ ابنَ هَمَّامٍ ، فحُيِّيتَ بِإِكْرَامٍ ، وَحَيِيتَ بَيْنَ كِرَامٍ . فقلت : أنا الْحَارِث ، فكيفَ حَالُكَ وَالْحَوادِث ؟ فقال : أَتَقَلَّبُ فِي الْحَالَيْنِ : بُؤْسٍ وَرَخَاءٍ ، وَأَنْقَلِبُ مَعَ الرِّيحَيْنِ : زَعْزَعٍ وَرُخَاءٍ . فقلتُ : كَيفَ ادَّعَيْتَ الْقَرْنَ ، وَمَا مِثْلُكَ مَنْ هَزَلَ ! فاسْتَسَرَّ بِشْرُهُ الَّذِى كَانَ تَجَلَّى ، ثم أَنشدَحِينَ وَلَّى :

تَعارَجْتُ لا رَغْبَةً فِي الْعَرَجْ وَلَـكِنْ لأَقْرَعَ بَابَ الْفَرَجْ
وَأُلْقِيَ حَبْلِي عَلَى غَارِبِي وَأَسْلُكَ مَسْلَكَ مَنْ قَدْ مَرَجْ
فإِنْ لاَ مَنِي الْقَوْمُ قُلتُ اعْذِرُوا فَلَيْسَ عَلَى أَعْرَجٍ مِنْ حَرَجْ

* * *

قوله: «فاستعدته»، أى قلت له أعد علىّ. عرفتَ بوشيك، أى عرفت بحسن كلامك وتزيينه. استقم: استعْدِل وأَزِلْ عوجك. حُيِّيت: طال بقاؤك، والتحية البقاء: حَييت: عشت. والحوادث: مايحدث من الخير والشر. بؤس: شدّة العيش. رخاء: لينه وسعته. زعزع: ريح شديدة تحرّك الشجر وتقلعه. والزعزعة: تحريك الشيء إذا أردت قلعه. رخاء: ريح لَيِّنَة سريعة، من الإرخاء فى السَّير، وهو عَدْوٌ فوق التقريب، وناقة مِرْخاء: سريعة. القزَل: أسوأ العَرَج، وقد قزل قَزَلاً.

وهَزل هَزْلا: ترك الجِدّ فى قول أو فعل، يقول: كيف تحيّلت بالعرَج ومثلك لايهزِل ولا يقع فى هذه النقيصة! فهو يهزأ به، فغضب عند ذلك. استسرّ بشرُه: زال عنه سماحُه وطلاقة وجهه. تجلّى: ظهر. ولّى: ذهب.

قوله: «أقرع»، أى أضرب. الفرج: كشف الهمّ. ألقى حبلى على غاربى: أى أسرح وأمشى حيث أحببت، والعرب تطلق هذا اللفظ، فتقول للمرأة: حبلُك على غاربك، أى أنت مسيَّبة فتوجَّهى حيث شئت لامانع لك ولاحابس، والغارب: ما انحدر من السَّنام، والحبل هو الذى يُعقل به البعير، فإذا سرَّحوه حلّوا عقالَه وألقوْه على غاربه، قال ابنُ الأنبارىّ: أصله أن يلقى على حبل الناقة على غاربها فتفزع، ولا ترعَى إذا لم تره على الأرض.

أسلك مسلك، أى أدخل مدخل، والمسلك: الطريق. مرَج: خلط الجدّ بالهزل. حرج: إثم والله تعالى أعلم

المقامة الرابعة وهي الدمياطية

أَخْبَرَ الحَارِثُ بنُ هَمَّامٍ قال : ظَعَنْتُ إلى دِمْياط ، عَامَ هياطٍ ومِياطٍ ؛ وأنا يَوْمَئِذٍ مَرْمُوقُ الرَّخاء ، مَوْمُوقُ الإخاء ، أَسْحَبُ مطَارِفَ الثَّرَاء ، وَأَجْتَلِي مَعَارِفَ السَّرَّاء . فَرَافَقْتُ صَحْباً قَدْ شَقُوا عَصَا الشِّقَاقِ ، وَارْتَضَعُوا أَفاوِيقَ الْوِفاقِ ؛ حَتَّى لاَحُوا كأَسْنَانِ الْمُشْطِ فى الاستواء ، وَكالنَّفْسِ الواحدة فى الْتِئامِ الأَهْوَاءِ . وَكُنَّا مع ذَلِكَ نَسِيرُ النَّجَاء ، وَلاَ نَرْحَلُ إلَّا كلَّ هَوْجَاء ، وَإذَا نَزَلْنَا منْزِلاً ، أَوْ وَرَدْنَا منْهلاً ، اخْتَلَسْنَا اللَّبْثَ ، وَلَمْ نُطِلِ الْمُكْثَ . فعَنَّ لَنَا إعمال الرِّكابِ ، فِي لَيْلَةٍ فتيَّةِ الشَّبابِ ، غُدَافيَّةِ الإهابِ . فأَسْرَينا إلَى أَنْ نَضا اللَّيْلُ شبَابَهُ ، وَسَلَتَ الصُّبْحُ خِضابَهُ .

* * *

قوله : « ظعنت » ، أى رحلت ، والظعن ضدّ الإقامة .

دمياط : بلد بينه وبين مصر ثلاثون فرسخاً ، وهى على ساحل البحر الملح ، وإلى دمياط ينتهى ماء النيل ، فيفترق منها فيخرج بعضه إلى بحيرة تنِّيس ، وهى بحيرة تجرى فيها السفن والمراكب العظام ، ويخرج بعضه إلى البحر ، وبها تعمل الشروب ، وقد ذكرنا ذلك عند تِنِّيس .

قوله : «هياط» : صياح ، وتهايط القومُ : اجتمعوا ودبَّروا أمْرَهم . مِياط : دفاع ، أى كان عام هَرْج وخِلاف . مرموق : منظور إليه . الرخاء : سعة المال . موموق : محبوب . أسحب : أجرُّ . مطارف : ثياب لها أعلام فى أطرافها .

أجتلى : أنظر . معارف: وجوه. السرّاء : الغنى والسرور . رافقت : صحبت فى السفر . والصَّحْب : الأصحاب . الشّقاق: الخلاف، ومعنى شقُّوا عصاه ، أزالوه وطرحوه ، والعرب تقول : شقّ فلان العصا ، إذا ترك الطاعة وخرج مباينًا،قال أبو عبيد : العصا تُضرب مثلا للاجتماع ، وانشقاقها يُضرب مثلا للافتراق الّذى لا اجتماع بعده . أفاويق : جمع أفواق ، وأفْواق جمع فُواق ،وهو ما بين الحلْبتين . والوِفاق : ترك الخلاف ، وقد وافقته موافقةً ووِفاقًا .

قوله :« لاحوا »،أى ظهروا .والعرب تضرب المثل بأسنان المُشط ، وهو يقع على كلّ استواء فى أىّ حال كان ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : « الناس كأسنان المُشط ، وإنما يتفاضلون بالعافية » ، فإن أرادوا الاستواء فى الشرّ قالوا : سواسية كأسنان الحمار ، وقال كثيّر يهجو بنى ضمرة :

فسائل بقومى كل أجْرَدَ سابحٍ وسلْ غنما رُبِّى بضمْرة أو سَخْلاَ[1]

سواء كأسنان الحمار فلا ترى لذى كِبْرَةٍ منهم على ناشئٍ فَضْلاَ

التئام : اجتماع واتّفاق . الأهواء : جمع هوى ، وهو ما تحبُّه وتميل إليه النفس ، فأراد أنّ أغراضَهم متّفقة . النَّجاء : السير السريع . نرحل : نشدّ عليها الرَّحْل ونشخص بها . هوجاء: ناقة سريعة ، كأنَّ بها هَوَجًا وهو الحمق، لسرعة مشيها . وردنا منهلاً : أتينا ماء نَنزل عليه، والنّهَل : المشرب الأوّل ، والعَلَل الثانى ؛ وذلك أنّ الإبل تَرِدُ الماءفتشرب منه ، ثم تخرج ترعى ساعة وتستريح ، وتسمّى تلك الاستراحة فى الرِّعى التَّمرئة ، ثم ترد مرَّة أخرى فتشرب الماء ، فالشرب الأولَ نَهَل ، والثانى عَلَل . والمَنْهل : موضع النّهل . والورود: قصد الماء .

اختلسنا : استرقنا . اللبث : الإقامة . ومثله المُكْث ، أى لا يستقرّون بموضع ينزلون فيه إلاقليلاً .والرِّكاب: الإبل؛وإعمالها: استعمالها. فَتِيَّة الشباب: صغيرة السن ، وأراد أنها طويلة سوداء لا قمر فيها ، لأن شعر الشباب أسود ،

(١) ديوانه ٢ : ١٩ ، عن الشريشى : و «رُبِّى» لغة فى: «رُبِّىَ» .

ويريد أنها أول الشهر ، فهى كالفتيّة ، والليلة أوّل الشهر سوداء . غُدافيّة : منسوبة إلى الغُداف ، وهو الغراب لسواده ، والإهاب : الجلد ، وأراد لونها . أسْرينا : مشينا بالليل ، ويقال : سرى وأسرى . نَضَا الليل شبابه ، أى أزال ظلامه ، ونضا ثوبه : جرَّده عنه ، ومثله : سَلَت خضابه ، وأراد أن الصبح بيَّض الظلام بضوئه ، وسلَت الشيء سَلْتاً ؛ أزاله عمَّا علق به ، والمرأة خضابها كذلك ، وسيأتى ذكر الصبح آخر المقامة .

[مما قيل فى سواد الليل]

وينظر فى سراه مع صحبه فى سواد الليل إلى قول ابن شهاب :

وفُتوّ أسرَوْا وقد عكف اللَّيْـــل وأقْعى مُغْـدَوْدِفَ الأطْنابِ
وكأنّ النجـــوم لمّا هدتهُم أشرقتْ كالعيون من أهْدَابِ
يتفرّون جَوْز كلّ فـــلاةٍ جُنْح ليلٍ جَوْزَاؤُه من رِكَابِ
عنّ ذكرى لمدحهم فتناهَوْا من حديثى فى عرض أمر حِجَابِ
همّـــةٌ فى السّماء تسحب ذيلاً من ذيول العُلا وجدّ الرِّكَابِ

ومما جاء فى سُرى الليل قول عبد الصّمد بن المعذّل ، وهو من حسَن الاستعارة :

أقولُ وجُنح الدُّجى مُلْبَدُ وللّيل فى كلّ نَجٍّ يدُ[1]
ونحن ضجيعان فى مسجدٍ فللّه ما ضمّن المسجِدُ !
فيا ليلة الوصل لا تبعَدى[2] كما ليلة الهجر لا تبعـــدُ[3]
ويا غد إن كنت لى راحماً فلا تدنُ من ليلتى يا غَدُ

(١) ديوان المعانى ٤٣ ، ونسبها إلى ابن أبى فنن .
(٢) ديوان المعانى : « لاتنفدى » (٣) ديوان المعانى : « لاتنفد »

وقال ابن المعتزّ :

يا ربّ ليل حالكِ الجلبـــابِ ملتحفٍ خافيتَيْ غرابِ

وما أحسن قول ابن شُهيد فى وصف الليل :

وبتنا نراعى اللَّيل لم نطوِ بُرْدَهُ ولم يجن شيبُ الصبح من فَرْعِهِ وَخْطَا
تراه كَمَلْك الزَّنج من فرطِ كِبْره إذا رام شيئاً فى تأخّره أبطَا
مطلا على الآفاق والبدرُ تاجُه وقد عَلَّق الجوزاءَ فى أذنه قُرْطَا

وقال حبيب :

إليك هتَكنا جُنْحَ ليلٍ كأنَّه قد اكتحلت منه البلاد بإثمدِ[1]

وقال ذو الرّمة :

ودوِّيَّة مثل السماء اعتَسفتُهـا وقد صبغ الليلُ الحَصَى بسوادِ[2]

وقال أيضاً :

وليل كجلباب العَروس ادّرعتُه بأربعةٍ والشخصُ فى العين واحدُ[3]
أحمّ غُدافىٌّ ، وأبيض صارمٌ وأعيسُ مَهرىٌّ ، وأرْوَعُ ماجدُ[4]

---

(١) ديوانه ١٠٣ .

(٢) ديوانه ١٣٩ ، واعتسفتها : سرت فيها على غير هداية .

(٣) ديوانه ١٢٩ ، وروايته : « دليل كأثناء الرويزى جبته » . والرويزى : طيلسان، شبه الليل فى سواده به. وجبته : قطعته .

(٤) هـذا البيت تفسير للأربعة فى البيت السابق : أحمّ : أسود ، ومثله غدافى . وفى الديوان : « علافى » ، منسوب إلى عـلاف ، حى من العرب يعملون الرحال . والأبيض : سيف صارم قاطـع ، والأعيس : الأبيض، يعنى بكثرة . وأشعث ، يعنى نفسه . والمهرى من الإبل : منسوب إلى مهرة ، حى من عرب اليمن .

وقال البحترىّ :

يا خليلىّ بالهواجر من مَعْـــنِ بن عوفٍ وبُحتر بن عَتُودِ[1]
اطلبَا ثالثـــا سواىَ ، فإنِّى رابعُ العِيس والدُّجى والبِيدِ

وقال السَّلامىّ :

إليكَ طَوَى عَرْضَ البسيطةَ عاجلاً قطارُ المطايا أن يلوح لها القَصْرُ[2]
وكنت وعزمى فى الظَّلام وصارمى ثلاثةَ أشباح كما اجتمع النَّسْرُ
وبشَّرْت آمالى بملْكٍ هو الوَرَى ، ودارٍ هى الدُّنيا ، ويومٍ هو الدَّهْرُ

فالبيت الأوَّل والثانى نحو بيت البحترىّ ، والبيت الثالث نحو بيت ذى الرّمة فى التقسيم ، وبمثل هذا الكلام يمتدَح الملوك وإلَّا فلا . ولمَّا مدح عضدَ الدولة بلَّغه به من المكانة الغاية القصوى ، وفُتِن بشعره ، حتى كان يقول : إذا رأيتُ السَّلامىّ فى مجلسى ، ظننت أنّ عطارداً نزل من السماء . وسنذكر من شعره ما يحسن .

* * *

فحين مَلَلْنَا السُّرَى ، وَمِلْنَا إلى الْكَرَى ، صَادَفْنَا أَرضاً مُخضلَّةَ الرُّبَا ، مُعْتَـلَّةَ الصَّبَـا ، فتخيَّرْناهَا مُنَاخاً للعِيس ، وَمَحَطًّا للتَّعْرِيسِ ، فَلَمَّا حَلَّهَا الْخَلِيطُ ، وَهَدَأَ بِهَا الأَطِيطُ وَالْغَطِيطُ ، سَمِعْتُ صَيِّتاً مِنَ الرِّجَالِ ، يَقُولُ لِسَمِيرِهِ فِى الرِّحَالِ : كَيْفَ حُكْمُ سِيرَتِك ، مَعَ جِيلِكَ وَجِيرَتِكَ ؟

* * *

(١) ديوانه ٦٣٣ ، وفيه « يانديمى بالسواجير من ودبن معن » والسواجير : نهر من أعمال منبج بسوريا

(٢) يتيمة الدهر ٢ : ٣٧٠

قوله: «السرى» ، أى السير بالليل . الكرى: النوم . مخضلّة: مبتلّة بالنّدى . الرّبا : الكُدى ، واحدها ربوةً . معتلّة الصّبا ، أى ليّنة الريح . مناخاً : منزلاً . العِيس : الإبل يخالط بياضها حمرة . محطًّا : منزلا تحطُّ به الأحمال . التعريس : النزول بالليل فى آخره، وهذا التخيُّر الذى ذكر لهذه الأرض ، منتزَعٌ من حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا كانت أرض مخصبة فتقصّدوا فى السير وأعطُوا الركاب حقّها ، فإن الله رفيق يحبّ الرفق ، وإذا كانت مجدبةً فألحُّوا عليها ، وعليكم بالدّلجة ، فإنّ الأرض تُطوى بالليل ، وإياكم والتّعريس على ظهر الطريق ، فإنه مأوى الحيّات ومدارج السباع ».

الخليط : الأصحاب . هَدَأ : سكن . الأطيط : أصوات الإبل ، والغطيط: أصوات الناس النِّيام . صيِّتاً : جهير الصوت . سميره : رفيقه الذى يسمُر معه بالحديث . الرِّحال : منازل المسافرين ، سمِّيت رحالاً باسم الرِّحال التى توضع فيها، والرَّحْل : اسم لما يحمله البعير من حمله وقَتَبِه ومايوطّأ به تحت الحمل . سيرتك : عادتك . جيلك : أهل عصرك . جيرتك : جيرانك .

* * *

فقال : أَرْعَى الْجَارَ ، وَلَوْ جَارَ ، وَأَبْذُلُ الوِصَالَ ، لِمَنْ صَالَ ، وأحتمِلُ الْخَلِيطَ ، وَلَوْ أَبْدَى التَّخلِيطَ ، وَأَوَدُّ الْحَمِيمَ ، وَلَوْ جَرَّعَنِي الْحَمِيمَ ، وَأُفَضِّلُ الشَّفِيقَ ، عَلَى الشَّقِيقِ ، وأَفِي لِلْعَشِيرِ ، وَإِنْ لَمْ يُكافِئْ بِالْعَشِيرِ ، وَأَسْتَقِلُّ الْجَزِيلَ ، للنَّزِيلِ ، وَأُغْمِرُ الزَّمِيلَ ، بالجميلِ . أُنَزِّلُ سَمِيرِى ، مَنْزِلَةَ أَمِيرِى ، وَأُحِلُّ أَنِيسِى ، مَحَلَّ رَئِيسِى ، وَأُودِعُ مَعَارِفِى ، عَوَارِفِى ، وَأُولِى مُرَافِقِى ، مَرَافِقِى ، وَأُلِينُ مَقَالِى ، لِلْقَالِى ، وَأُدِيمُ تَسْآلِى ، عَنِ السَّالِى ، وَأُرْضَى من الْوَفاءِ ، باللَّفاءِ ، وَأُقْنِعُ

(١) الكدى : جمع كدية ؛ وهى الأرض الغليظة .

مِن الجَزاء ، بأقَلِّ الأَجْزاء ، وَلاَ أَتظَلَّمُ ، حِينَ أُظْلَمُ ، وَلاَ أَنْتَقِمُ ، وَلَوْ لَدَغَنِي الأَرْقَمُ .

* * *

قوله : « أرعى » ، أى أحفظ . جار : تعدَّى ومال عن الحق ، قال صلى الله عليه وسلم : « ما زال جبريل يُوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورّثه » . أبذُل : أعطِى . صال : صاح مخوّفا . الخليط : الصاحب ، ويقع على الواحد والاثنين والجمع بلفظ واحد ، وسُمِّى بذلك لاختلاط الأمر بين الصاحبيْن . الحميم الأوّل : الصديق المخلص ، والثانى : الماء الحارُّ . الشفيق : المحبّ . الشقيق : الأخ من الأب ، كأنه شَقَّ معك ظهر أبيك ومن الأمّ كأنه شقّ معك بطن أمك . أفِى للعشير : أعامل الصاحب بالوفاء . يكافىء بالعشير : يجازِى بالعُشر من فعلى ، والمكافأة المواساة . أستقلّ ، أراد قليلا . الجزيل : الكثير . النزيل : الضيف ، والنُّزُل ما يعدّ للضيف من طعام وغيره . أغمر : أعطى . الزّميل : الرديف . الجميل : الأفعال الجميلة . أميرى : الحاكم علىّ . الأنيس : الذى يؤنس بحديثه ، وفلان رئيس قومه : أفضلهم وأعزّهم . أودع : أعطى وديعة . معارفى : من يعرفنى . عورا فى : هِباتى ؛ واحدها عارفة ، وهى اليد من النعمة . أُولِى مُرافقى : أعطى مصاحبى فى السفر ، ومنه الرفقة لاتفاق بعضهم ببعض ، جمع مَرْفقة وهى المعونة وما يُرْتفق به . القالى : المبغض ، وقليت الرجل قِلًى ، أبغضته . تسألى : كثرة سؤالِى . السالى : الناسى للمودَّة والتارك لها ، وسلوت عن الشىء أسلو سلوًا وسلوة ، إذا تركته . اللَّفاء : النقصان . وقال أبو علىّ فى الإيضاح : اللّفاء ما دُون الحق ، قال أبو زيد الطائىّ واسمه حَرْملة رحمه الله :

فما أنا بالضّعيف فتظلمـــوه ولاحظِّى اللَّفاء ولا الخسيس[1]

(١) اللسان ـ لفأ . وروايته : « فما أنا بالضعيف فتزدرينى » .

أقنع : أرضى،والقناعة الرضا باليسير .والجزاء: المكافأة ، وجازيته بما صنع بمثل كافأته ، والأجزاء : الأنصباء تقسّم على جماعة ، واحدها جزء ، وأقلّها أنقصها. أتظلّم : أشتكى من الظلم . لا أنقم : لا أنتقم . تقول : نقمتُ منه نقمة ، أى عاقبته ، فمعناه : لا أعاقب صاحبى ، ولو بلغ فى الإضرار منّى الغاية ، وتقول أيضاً : نقَمتُ الشىء وأنقَمه نَقما ونُقومًا : إذا أنكرته ، فمعناه على هذا : لا أنكر على صاحبى ولو بالغ فى الأذى ، ويقال فى الإنكار أيضا ، نقَم ينقِم .

* * *

فَقَالَ لَهُ صاحِبُه : وَيْكَ يَا بُنَيَّ ! إِنَّمَا يُضَنُّ بالضَّنِينِ ، وَيُنَافَسُ فى الثَّمينِ ؛ لَكِنْ أَنَا لاَ آتِى ، غَيْرَ الْمُوَاتِى ، وَلاَ أَسِمُ الْعَاتِى ، بِمَرَاعَاتِى ، وَلاَ أُصَافِى ، مَنْ يَأْبَى إِنْصَافِى ، ولاَ أُوَاخِى ، مَنْ يُلْغِى الْأَوَاخِى ، ولاَ أُمَالِى ، مَنْ يُخَيِّبُ آمَالِى ، ولاَ أُبَالِى ، بِمَنْ صَرَمَ حِبَالِى ، ولاَ أُدَارِى ، مَنْ جَهِلَ مِقْدَارِى ، ولاَ أُعْطِى زِمَامِى ، مَنْ يُخْفِرُ ذِمَامِى ، وَلاَ أَبْذُلُ وِدَادِى ، لِأَضْدَادِى ، ولاَ أَدَّعُ إِيعَادِى ، لِلْمُعَادِى ، وَلاَ أُغْرِسُ الْأَيَادِى ، فى أَرْضِ الْأَعَادِى ، وَلاَ أَسْمَحُ بِمُوَاسَاتِى ، لِمَنْ يَفْرَحُ بِمَسَاءَاتِى ، ولاَ أَرَى الْتِفَاتِى ، إِلَى مَنْ يَشْمَتُ بِوَفَاتِى ، ولاَ أَخُصُّ بِحِبَائِى ، إِلاَّ أَحِبَّائِى ، ولاَ أَسْتَطِيبُ لِدَائِى ، غَيْرَ أُودَّائِى ، ولاَ أُمَلِّكُ خُلَّتِى ، مَنْ لاَ يَسُدُّ خَلَّتِى ، ولاَ أُصَفِّى نِيَّتِى ، لِمَنْ يَتَمَنَّى مَنِيَّتِى ، ولاَ أُخْلِصُ دُعَائِى ، لِمَنْ لاَ يُفْعِمُ وِعَائِى ، ولاَ أُفْرِغُ ثَنَائِى ، عَلَى مَنْ يُفَرِّغُ إِنَائِى .

* * *

قوله :«ويك» معناه التعجّب، كأنه قال: ما أعجبك! أو عجبًا لك . وقيل : أراد«ويلك»، فحذف اللام. إنما يضنّ بالضَّنين[1]، هذا مَثَل؟، أوّل مَن قاله الأغلب العجلىّ ،وفسره أبو عبيد[2] فقال:معناه: تمسَّك بإخاء من تمسَّكْ باخائك ، وبيانه أن الضّنين البخيل، ويضنّ: يبخل ، فيقول : إنما أتمسَّكُ وأتعلَّق بصاحبٍ تمسَّكَ بى وعرف حقّى، فأنا أبخل به على غيرى أن يشرَكنى فى صحبته كما يبخل بى هو على غيره ، وقيل :الضّنين فى المَثل هو الشىء المضنون به لنفاسته ، فمعناه إنما يُبخَل بالشىء النفيس الرفيع . المواتى : المساعد الموافق . العاتى المتكبّر الصعب الخَلق . والمراعاة: المحافظة للودّ .أسِم: اجعلها سِمة ، أى علامة . أصافى : أخلص له ودّى .يأبَى: يمنع . إنصافى ، أى إعطائى الحق من نفسه . أواخى : أصير له أخا وأتخذه صديقاً . يلغى : يترك ويطرح . الأواخى : أسباب الود ، واحدها أَخيَّة، وأصل الأخيَّة عُرْوة من حبل تشدّ فى وتِدٍ أو على حجر تحت الأرض ، وتبقى العروة على الأرض فيربط فيها حبل الدابه فيمسكها . أُمالى : أعاون ، وأصلها الهمزة ، تقول : مالأتُه على الأمر أمالئه، إذا عاونته وساعدته، ومنه :والله ما قتلت عثمان ولا مالأت فى قتله ، فخفف الهمزة ليوافق آمالى ، وهو جمع أمل ، وهو الرجاء . صرم حبالى: قطع أسباب وِصالى،وهم يكنون بالحبل عن الودّ،لأن الودّ يربط القلوب ويؤلّفها كالحبل فيما يربط . قوله :«أدارى» ،أسوس وأحسن صحبته .والزمام : حبل من جلود يربط فى حلقةٍ فى أنف البعير . يخفر ذمامى : ينقض عهدى ،أى لا أنقادلمن لاعهدله. ودادى :حُبِّى، وهو من وادّه وهو الذى لا يكون إلا من اثنين فوضعه موضع ودِّى ، ويقال أيضاً :فى الحُب حُباب مثل وداد ، قال الشاعر :

* أداء عرانى من حُبابك أم سحرُ *

---

(١) جمهرة الأمثال ١ : ٤٩

(٢) اللسان ، ونسبه إلى أبى عطاء وصدره :

* فوالله ماأدْرى وإنّى لصَادِقٌ *

أضدادى : أعدائى المناقضين لأفعالى . إيعادى : تهديدى وتخويفى . الأيادى : النّعم ، وواسيته : مواساةً : جعلته أسوة نفسى فى مالى فقاسمته فيه . مسا آتى : أحزانى وما يسوءنى . التفاتِى : نظرى وانعطافى إلى جهته . يشمت : يسرّ : وفاتى : موتى . أخصّ : أفرد . حِبائى : عطائى . أحبّائى : جمع حبيب . أستطِبّ : أطلب طِبّه . خَلّتى : صداقتى . يسدّ خَلّتى : يصلح فقرى . أخلص : أجعله خالصاً . يُفعم : يملأ . أفرغ ثنائى : أصبّ مدحى وأكسوه ، أو يكون أفرغه ، أبلغ آخره .

* * *

وَمَنْ حَكَمَ بِأَنْ أَبْذُلَ وَتَخزُنَ ، وَأَلِينَ وَتَخْشُنَ ، وَأَذُوبَ وَتَجْمُدَ ، وَأَذْكُوَ وَتَخْمُدَ ! لا وَاللهِ ، بَلْ نَتَوَازَنُ فى المَقَالِ ، وَزْنَ المِثْقَالِ ، وَنَتَحَاذَى فِى الْفِعَالِ . حَذْوَ النِّعَالِ ، حَتَّى نَأْمَنَ التَّغَابُنَ ، وَنَكْفَى التَّضَاغُنَ ؛ وَإِلاَّ فَلِمَ أَعْلُكَ وَتُعْلِنِى ، وَأُقِلُّكَ وَتَسْتَقِلُّنِى ، وَأَجْتَرِحُ لَكَ وَتَجْرِحُنِى ، وَأَسْرَحُ إِلَيْكَ وَتُسَرِّحُنِى . وَكَيْفَ يُجْتَلَبُ إِنْصَافٌ بِضَيْمٍ ، وَأَنَّى تُشْرِقُ نَفْسٌ مَعَ غَيْمٍ ! وَمَتَى أُصْحِبَ وُدٌّ بِعَسْفٍ ، وَأَىُّ حُرٍّ رَضِىَ بِخُطَّةِ خَسْفٍ ! وَلِلّهِ أَبُوكَ حَيْثُ يقولُ :

* * *

قوله : « تخزن » ، أى تحبس . أذكو : أضِىء ، يقال : خمدت النار ، إذا سكن لهبها ، وذكت : اتّقدت . والمثقال : الصنجة التى يوزن بها ، سُمّيت بذلك لأنها تثقل ما يوزن بها فى الكفّة الثانية . نتحاذى : نتشابه . والفَعال : بفتح الفاء : اسم للفعل الحسن أو القبيح ، ولا يقال بكسرها إلا فى مصدر فاعَل ، قال ابن الأعرابىّ : الفَعال : فعل الواحد من الخير والشرّ ، والفِعال بالكسر : الفعل بين الاثنين . حذو : متشابهة ، والعرب تقول فى الشيئين يشتبهان : هما حذو النعل

بالنعل، أى كل واحد من النّعلين تُقطع على قالب أختها ، ومنه قول الهذلى:

وتأمّل السِّبْت الذى أحْـذُوكُمُ فانظُرْ بمثل حذائه فاحذونى[1]

التّغابن : الغبن . نكفَى : نمنع . التضاغن : العداوة ، وتضاغن الرجلان : اعتقد كلّ واحد منهما لصاحبه ضِغْناً وهو الحِقْد . أعُلّك : أسقيك عَلَلاً ، أى مرّة بعد أخرى . تعلّنى : تمرضنى . أقِلُّك : أرفعك . تستقلّنى : تحقرنى . أجترح : اكتسب . أسْرَح : أرعى عليك ، وأجلب عليك الرزق بالغداة والعشىّ . تسرّحِنى : تهملنى . ضيم : ذلّ . أنّى : كيف . تشرق : تُضىء ، من أشرقت ، وتشرُق تطلع ، من شرقت . غيم : سحاب . أصحب : أنقاد . بعسف : بجوْر ، وأصل العَسْف ركوب الأمر بغير تدبير . والخطة : المنزلة والمرتبة ، والخسف : الإذلال والنقصان ، ومنه خسف الأرض ، والخاسف : المهزول ، ويقال : باتوا على الخسف ، أى جياعاً ليس لهم شىء يتقوّتون به والخسف للدابة : أن تبيت بغير عَلف .

* * *

جَزَيْتُ مَنْ أَعْلَقَ بى وُدَّهُ جزَاءَ مَنْ يبْنِى عَلَى أُسِّهِ

وَكِلْتُ لِلْخِلّ كَمَا كالَ لِى عَلى وَفَاءِ الْكَيلِ أَوْ بَخْسِهِ

وَلَمْ أُخَسِّرْه وَشَرُّ الْوَرَى مَنْ يَوْمُهُ أَخْسَرُ مِنْ أَمْسِهِ

وَكلُّ منْ يَطْلُبُ عِنْدِى جَنًى فَمَا لَهُ إلاَّ جَنَى غَرْسِهِ

لا أَبْتَغِى الْغَبْنَ ، وَلا أَنْثَنِى بِصَفْقَةِ الْمَغْبُونِ فى حِسِّهِ

وَلستُ بالْمُوجِبِ حَقًّا لِمَنْ لايُوجِبُ الْحَقَّ عَلى نَفْسِهِ

وَرُبَّ مَذَّاقِ الهوى خالَنِى أَصْدُقُهُ الْوُدَّ عَلى لَبْسِهِ

(١) لبدر بن عامر ، ديوان الهذليين ٣ : ٣٦٠

وَمَا دَرَى مِنْ جَهْلِهِ أَنَّنِي أَقْضِي غَرِيمِي الدَّيْنَ مِنْ جِنْسِهِ
فَاهْجُرْ مَنِ اسْتَغْبَاكَ هَجْرَ الْقِلَى وَهَبْهُ كَالْمَلْحُودِ فِي رَمْسِهِ
وَالْبَسْ لِمَنْ فِي وَصْلِهِ لُبْسَةً لِبَاسَ مَنْ يُرْغَبُ عَنْ أُنْسِهِ
وَلا تُرَجِّ الْوُدَّ مِمَّنْ يَرَى أَنَّكَ مُحْتَاجٌ إِلَى فَلْسِهِ

* * *

قوله: «أعلَق» ، بمعنى علَّق،أى ألصق. أسّه : أصل بنائه؛ يقول: من علّق بقلبى ودّه، جعلت ذلك الودّ أسّا بقلبى ، وبنيتُ عليه ودى، فإن أسس فى قلبى ودّا سلبما بنيت له عليه مثله ، وإن غشّنى فى ودٍّ غششته، والهاء فى «أسّه» ترجع إلى «مَنْ» أى مَنْ نصحنى فى صحبتِه نصحته . والخِلّ : الصاحب . بخسه : نقصه . أخسر : أنقص . الورى : الخلق من الناس . الجَنَى : ما يجنى من الثمرة . أبتغى الغبن : أطلب الخداع : أنثنى : أرجع ، وصفقة المغبون : بيعة المخدوع . حسّه : فهمه ، والحسّ: صوت حركة الحىّ . والصفقة : فى الأصل مصدر ، يقال: صَفَق صفقًا إذا ضرب بإحداهما على الأخرى ، وكانت صفقة البيع عند العرب أن يضرِب المشترى بيده على يد البائع ، فإن رضى البيع قبض على يد المشترى وانعقد البيع ، وإن لم يرض أرسل يده ، ثم صاروا يقولون ، رضى الصفقة ، إذا رضىَ البيع ، ثم سُمِّى عقد البيع صَفْقة . مذّاق : خلّاط غير مخلص . الهوى : الحبّ . وخالَنى : حسبنى . لَبْسه : تخليطه وتلبيسه . غريمى : صاحب دَيْنى. من جنسه : من نوع ما أعطانى . استغباك : استجهلك . القِلى : البغض . هبه : احسبه . الملحود : المدفون . رمسه : قبره ، ويشير إلى بيته قول ابن الرومىّ :

مَنْ تصدّى لأخيه بالغنى فهو أخُوهُ

فإن احتاج إليه راءَ منه ما يَسُوهُ
يُكرَم المثرِى فإن أمْلَقَ أقصَاه بَنُوهُ
أنت ما استغنيتَ عن صا حبك الدَّهرَ أَخُوهُ
فإن احتجت إليه ساعةً مجَّكَ فُوهُ

ووُجد على حجر مكتوباً :

كلّ من أحوجك الدهر إليهِ وتعرَّضت له هُنْتَ عَلَيْهِ

وهذان المذهبان اللَّذان ذكرهما الحريرىّ مبنيان على آيتين ، من كتاب الله تعالى ؛ قوله تعالى : ﴿وإنْ عاقَبْتُم فعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتم بِهِ ولئِنْ صَبرتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ للصَّابرين﴾ ، والثانية قوله تعالى : ﴿وَلَمَنِ انْتَصَر بعد ظلمِه فأولئكَ ما عَلَيْهِم مِنْ سَبِيل﴾ .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : «لاخير فى صحبة مَنْ لايرى لك من الحق ، مثل الذى ترى له» .

[مذاهب الشعراء فى العفو أو الانتصاف]

وللشعراء القدماء والمحدثين فى المذهبين شعر كثير ، قال المقنّع الكندىّ فى المذهب الأول :

وإنَّ الَّذِى بينى وبينَ بنى أبِى وَبَيْنَ بنى عمِّى لمختلِفٌ جدًّا[1]
أراهم إلى نصرى بِطاءً وإن هُمُ دعوْنى إلى نصْرٍ أتيتهمُ شدًّا
وإن أكلُوا لحمِى وفرْتُ لحومَهُمْ وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا

(١) حماسة أبى تمام ٣ : ١٧١ ـ بشرح التبريزى

وإن ضَيَّعُوا غَيبى حفظتُ غيوبَهُمْ وإنْ هُمْ هَوُوا غَيّى هويتُ لهمْ رُشْدَا
وإنْ زجَرُوا طَيراً بنحسٍ تمرُّ بِى زجرتُ لهمْ طيراً تمُرُّ بهم سَعْدَا
لهمْ جلّ مالى إن تتابع لى غنًى وإن قلّ مالى لم أكلفهمُ رِفْدَا
ولا أحملُ الحِقْدَ القديم عليهمُ وليس يسودُ القومَ من يحمِلُ الحِقْدَا

وقال معن بن أوْسٍ المُزنىّ فى المذهب الثانى :

إذا أنت لم تُنصِفْ أخاك وجدتَه على طرف الهِجران إن كان يعقِلُ (١)
ويركبُ حدّ السيف مِنْ أن تَضيمَهُ إذا لم يكن عن شَفْرة السيف مَزْحَلُ
وكنتُ إذا ماصاحبٌ رامَ ظِنَّتِى وبدَّل سوءاً بالذى كُنْتُ أفعلُ
قلبت له ظهر المِجَنِّ فلم أدمْ على ذاك إلاّ ريثما أتحـــوّلُ

وقال إبراهيم بن العباس الصولىّ :

أميل مع الذّمام إلى ابن عمِّى وآخذ للصديق من الشقيقِ (٢)
وإن ألفيتَنِى حُـرًّا مُطاعاً فإنك واجدِى عبْـدَ الصديقِ
أفرّق بين معـــروفِى وبينى وأجمع بين مالِى والحقـــوقِ
وكنت إذا الصديقُ أراد غيظى وأشرقنِى على شَرَقٍ بِرِيـــقِى
غفـرتُ ذنوبه ، وصفحت عنه مخافة أن أعيش بلا صديقِ

وكلّف إبراهيم بن العباس بعض إخوانه مقاطعة صديق فقال له :

إنى متى أحمـــل بحقـــدِك لا أضُرُّ بهِ سِوَاكا (٣)

---

(١) حماسة أبى تمام ـ بشرح التبريزى ٣ : ١٣٢
(٢) ديوانه ١٥٤
(٣) ديوانه ١٤٦

ومتى أطعتُك فى أخيـك أطعتُ فيك غـداً أخاكا
حـــتَّى أُرَى مستقسمًا يومى لِذَا ، وغداً لذَاكَا

وقال أبو الفتح البُستىّ فى المذهب الثانى:

فـإن تزرْنى أَزُرْ وإمَّا تَقِفْ ببابى أقف ببـابكْ
والله لا كنتَ فى حسابى إلاَّ إذا كنتُ فى حسابكْ

أين هذا من قول البستىّ أيضاً وقد خالفه فيه خلافاً شديداً ، ولا نازعه أحد فيه ، ولا سبقه إليه إذ يقول :

وإنّى لأختصُّ بعضَ الرجال وإن كان فَدْماً ثقيلاً عَبَامَا[1]
فإنَّ الجَبَيْن على أنه وخيمٌ ثقيلٌ يشهِّى الطَّعَامَا

ولابن شرف :

بِعْ مَنْ جفاك ولا تبخـل بسلعَتِه واطلب به بَدَلاً إن راء تَبْدِيلاَ

وهو كثير ، وبما ذكرت يستدلّ على الباب .

* * *

قَالَ الْحَارِثُ بْنُ هَمَّامٍ: فَلَمَّا وَعَيْتُ مَادَارَ بينهما ، تُقْتُ إِلَى أَنْ أَعْرِفَ عينهما ، فَلَمَّا لاحَ ابْنُ ذُكاء ، وَأَلْحَفَ الْجَوَّ الضِّيَاء ، غدَوْتُ قَبْلَ اسْتِقْلاَلِ الرِّكَابِ ، وَلاَ اغْتِدَاءِ الْغُرَابِ ، وَجَعَلْتُ أَسْتَقْرِىءُ صَوْبَ الصَّوْتِ اللَّيْلِىِّ ، وَأَتَوَسَّمُ الْوُجُـوهَ بالنَّظَرِ الجَـلِىِّ ، إِلَى أَنْ

(١) العبام : الغليظ الجافى

لَمَحْتُ أَبَا زَيْدٍ وابْنَهُ يَتَحَادَثَانِ ، وَعَلَيْهِما بُرْدَانِ رَثَّانِ ، فَعَلِمْتُ أَنَّهُما نَجِيَّا لَيْلَتِي ، وَصَاحِبَا رِوَايَتِي .

* * *

قوله : «وعيت» ، أى حفظت . تقت ، أى اشتقت . عينهما : شخصهما . لاح : ظهر . ابن ذُكاء : هو الصبح ، وذكاء هى الشمس ، ويقال للصبح : ابن ذكاء لأنه من ضوئها . ألحف : غطّى . الجوّ : الهواء بين السماء والأرض ، أراد أن الصبح غطى نواحى السماء بضوئه .

[ما ورد فى الصبح من الشعر]

ومن حسن التشبيه فى ضوء الصبح قول ذى الرمّة :

وقد لاح للسَّارى الذى كَمَّل السّرى ... على أخريات اللَّيل فَتْقٌ مشهَّرُ[1]

كلون الحصان الأبيض البطن قائماً ... تمايل عنه الجُلّ واللون أشقرُ

شبه اختلاط الضوء بالظلمة بالفرس الأشقر الأبيض البطن .

وقال ابن المعتزّ :

وساقٍ يجعل المِنديلَ منْهُ ... مكان حمائل السيف الطّوالِ

غدا والصبحُ تحت الليل بادٍ ... كطِرْفٍ أشقرٍ ملقى الجِلالِ

وقال **يوسف الرمادى** :

وليلة أنس قد غمرْنا ظلامها ... بأوجهِ راحٍ تستنير فترشفُ

إلى أن بدا ضوءُ الصباح كأنَّما ... تحمَّل لثامٌ ، وأقبل يوسفُ

قوله : «غدت» ، أى بكرت ، استقلال : ارتفاع وقيام . والركاب : الا،

(١) ديوانه ٢٢٧

واحدتها ، راحلة . ولا اغتداء الغراب ، أى ولا مثل اغتدائه ؛ فحذف « مثل» المنصوبة بلا ، وأقام «اغتداء »مقامها لأن« لا» لا تنصب المعارف ، وأراد أن اغتدائى كان قبل أن يغتدِىَ الغراب ، والغراب أكثر الطير بكوراً ، وهذا وما شابهه فى هذا الكتاب مثل قوله : «ولا كيد فرعون موسى» ، «ولا انهلال السحب » ، «ولا عمرو بن عبيد» ، إذا طابت حقيقة معناه صار المشبّه أقوى من المشبه به ، ولم يأت هذا إلا عن العرب، تقول العرب : «فتى ولا كمالك»، فيريدون مالكاً أفضل من الفتى ، ومثله «مرعًى ولا كالسَّعدان » أى أن المرعى فاضل فى طيبه ، ولكن السعدان أفضل منه ، ومثله : « ماء ولا كصدّاء » ، فصدّاء أفضل من ذلك الماء على طيبه ، فهذا مذهب العرب فى ذكر «لا» بين المشبّهين.

وأما قول الحريرى:«غدوت ولا اغتداء الغراب» ، فيريد أن غدوِّى أبكر من اغتداء الغراب ، وكذلك « ولا انهلال السّحب » ، وهو يريد أنّ جودهم فوق جود السحاب ، لأن كلام العرب : فلان أبْكرُ من الغراب ، وأجود من السحاب ، ولا يقولون السحاب أجود من فلان ، ولا الغراب أبكر من فلان، ولا فائدة فى ذلك، فإذا حققت لفظة «ولا» فى تشبيه الحريرىّ على مايجب لها فى كلام العرب انقلب المعنى ، وإنما اللفظ من كلام عامّة العراق ، فاستعمالها لأنها عندهم متعارفة وليست بعربية ، ومثل هذا قد جوّزه المولدون فى أشعارهم ، وجاء منه فى مقامات البديع كثير . ويستعمل أهل فاس فى مغربنا لفظة « ولا» فى تشبيهاتهم كثيراً جدًّا اعلى حدّ استعمال الحريرّى لها ، ولا يستعملها أهل الأندلس .

وقال الفنجديهىّ : الرفع فى قوله :«ولا اغتداء الغراب » ، أكثر مبالغةً فى التشبيه من النصب .

قوله:«أستقرئ»، أى أتتبع . صوب :جهة وناحية. الليلىّ : الذى سُمِّى الليل. أتوسّم . أتعرّف وأنظر سمتها . الجلىّ : البيّن. لمحت : رأيت . بُرْدان زَنّان :

بوبان خَلَقان . نجيًّا ليلتى ، أى المتحدّثان فيها ، وجعلهما متحدثين مع الليلة مجازاً لما أوقعا الحديث فيها ، كقوله تعالى : ﴿بل مكْرُ الليل والنهار﴾[1] ولا يمكران إنما يُمْكَر فيهما ، فنسب ذلك المكر إليهما. صاحبا روايتى . أى اللذان أروى عنهما هذه القصة .

* * *

فَقَصَدْتُهُمَا قَصْدَ كَلِفٍ بِدَمَاثَتِهِمَا ، رَاثٍ لِرَثَاثَتِهِمَا ، وَأَبَحْتُهُمَا التَّحَوُّلَ إِلَى رَحْلِى ، وَالتَّحَكُّمَ فِى كُثْرِى وَقُلِّى ، وَطَفِقْتُ أُسَيِّرُ بَيْنَ السَّيَّارَةِ فَضْلَهُمَا ، وَأَهُزُّ الأَعْوَادَ الْمُثْمِرَةَ لَهُمَا ، إِلَى أَنْ غُمِرَا بِالنُّحْلَانِ ، وَاتُّخِذَا مِنَ الْخِلَّانِ . وَكُنَّا بِمُعَرَّسٍ نَتَبَيَّنُ مِنْهُ بُنْيَانَ الْقُرَى ، وَنَتَنَوَّرُ نِيرَانَ الْقِرَى .

فَلَمَّا رَأَى أَبُو زَيْدٍ امْتِلَاءَ كِيسِهِ ، وَانْجِلَاءَ بُوسِهِ ، قال لى : إِنَّ بَدَنِى قَدْ انْسَخَ ، وَدَرَنِى قَدْ رَسَخَ ، أَفَتَأْذَنُ لِى فِى قَصْدِ قَرْيَةٍ لأَسْتَحِمَّ ؛ وَأَقْضِىَ هَذَا المهِمّ ؟ فَقُلْتُ : إِذَا شِئْتَ فالسُّرْعَةَ السُّرْعَةَ ، وَالرَّجْعَةَ الرَّجْعَةَ ، فقَالَ : سَتَجِدُ مَطْلَعِى عَلَيْكَ ، أَسْرَعَ مِنَ ارْتِدَادِ طَرْفِكَ إِلَيك .

* * *

كَلِف : محبّ . دَماثتهما : سهولتهما ، والدّماثة سهولة الأرض ، وكل ما وطئته وسهّلته وأذللته بيدك فهو دَمِث . راثٍ : بالٍ مشفق . ورثاثتهما : سوء

(١) سورة سبأ ٣٣ .

حالها . أبحته : جعلته له مباحاً . كُثْرِى وقُلِّى : أى كثير مالى وقليله . طفقت : أخذت . أسيّر : أمشى . السيارة : القوم الذين يسيرون فى الأسفار . أهزّ الأعواد ، استعارة ، وأراد أنه يستعطف لها أصحاب الأموال فيواسونهم ، فكنى عنهم بالأعواد ، وقد كرّر هذا المعنى نظماً حين قال :

قصدته والشيخ يبغى جنَى عُودٍ له ما زال مهزُوزَا[1]

وقال الشاعر فى مثله :

إلاّ يَكُنْ ورقِى غضًّا أراح به للمعتفين فإنى لَيِّنُ العُـــودِ

أراد إنْ لا أكن كثير المال فإنى كريم . والورِق : المال غير الصامت ، وأراح به : أهتزّ به ، من الأريحيّة . وراح الشجر : أتى بورق فى آخر الصيف لا أصل له ، ويقال لها الخلفة . قوله : « غمَرا » ، أى أعطيا . النّحلان : العطايا . الخِلاّن : الأصحاب . وقوله : « وكنا بمعرّس » ، المعرّس موضع النزول آخر الليل . نتنوَّر : ننظر النيران . القِرى : طعام الضيف . كيسه : وعاء دراهمه ، والكِيس : خريطة تسع خمسمائة درهم والبَدْرة تسع عشرة آلاف درهمٍ ، قال حبيب :

من بعد ما صارتْ هنيدة صِرمةً والبَدْرة النَّجلاء صارت كيسا[2]

قوله : « انجلاء بوسه » ، انكشاف فقره . دَرَنِى : وسخى . ورسخ الشىء فى الأرض رسوخاً : غاب فيها ، ورسخ العالِم فى العلم : دخل فيه . أستحمّ : أدخل الحمام ، واستحمّ الرجلُ : اغتسل بالحميم ؛ وهو الماء الحارّ . أقضى : أقطع وأزيل ، وقضيت الشىء : صنعته . المهمّ : أراد به فَرْض الصَّلاة ، قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : إنّ أهم أموركم عندى الصّلاة ، فمن ضيَّعها فهو لما سواها أضْيَع . وقيل :

---

(١) فى المقامه الأربعين صفحه ٤٤٨ (طبعة الحسينية) .

(٢) ديوانه ١٧٧ ، والهبنذة : اسم المائة من الإبل . والصرمة : ما بين العشرة إلى بضعة عشر . والنجلاء : الواسعة .

المهمّ: الوسخ لأنّ الأمر المهمّ، هو الذى فى القلب منه همّ وشغل، وقد ذكر أن الذى أوجب عليه قصد الحمام هو ما عليه من الوسَخ، فيكون قوله: «وأقْضِى هذا المهمّ» من قوله تعالى: ﴿ثمّ ليَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾[1]، وقد أهمّنى الشىء فهو مهِمّ، وهذا القول أوفق بمراده.

[نبذ ممّا قيل فى الحمّام شعرا ونثرا]

وللزاهد بن عمران رحمه الله وقد استبطأ فى دخول الحمّام:

يا صاح عهدىَ بالحمّام قد بَعُدَا ... فلا تلمنِىَ فيه إن طلبتُ مَدَى
قارعتُ فيه العِدا فى معرَكٍ لجِبٍ ... دَحْضٍ تزلّ به الأقدام قد بَعُدا
عِداً أثرن برأسى حين ثُرْن به ... توقّدا وأعادت جلدَه جَلِدَا
فظلْت مستأصِلاً بالقتل أجمعُها ... فلم أدَعْ والداً منها ولا وَلَدَا
ثم انثنيتُ معافًى ناعماً جَذِلاً ... مظفّراً أستزيد الواحد الصَّمَدَا

ورأى نفسه ممتدّاً بين يدى الحكّاك، فقال:

أأغترّ إن مُدّ فى العُمْرِ لى ... وأُرجِى المتابَ إلى قابِلِ
وأغفلُ والموت لِى طالبٌ ... حثيثٌ كذئب الغضَى القاتِلِ
كأنّىَ بى هكذا ميتا[1] ... تَحَكَّمُ فىّ يَدُ الغاسِلِ

وله أيضاً:

شكرت للدهر حسنَ ما صنَعَا ... طريدَ مجدٍ تحيّتى رفعا
يا حُسْنَ حمّامنا وقد غَرُبَتْ ... شمس الضحى فيه بعد ما مَتَعَا
أيقنَ أنّ الهلال راكبُه ... فضاء للحاضرين واتّسعا
فأنعمْ أبا عامر بنعمتِه ... واعجب لأسرين فيه قد جُمِعَا

(١) الحج ٢٩ : ١١٢ (٢) ! بدله كأن بى .

نيرانه من زِنادِكُمْ قُدِحت وماؤه من بَنانكم نبعا

ولبعضهم فى حمّام كانت مضاوئه من زجاج أحمر ، وفى سمائه حمرة وبياض:

تحيّرتُ من طيبِ حمَّامِنا فَخُيِّل لى أن فيه الفلقْ
فمن حمرةٍ فوقنا وابيضاض لحدّ الحبيب إذا ماعَرَقْ
رأى الدهر ماسدّ من حُسْنِهِ فسدَّ كُوَى سقفِه بالشَّفقْ

ودخل الحمّام أبو جعفر التُّطيلىّ وأبو بكر بن بقىّ رحمهما الله تعالى ، فقال أبو جعفر :

يا حُسْنَ حمَّامنا وبهجته مرأًى من السِّحر كلُّه حَسَنُ
ماءٌ ونارٌ جواهما كنفٌ كالقلب فيه السّرور والحزَنُ

ونظر فيه إلى غلام وسيم ، فقال :

هل استمالك ميَّال القوَامِ وقَدْ سالت عليه من الحمَّامِ أندَاه
كالغصن باشَرَ حرّ النار من كثَب فظلّ يقطر من أعطافه الماء

وقال آخر :

حمّامنا فيه فصل القيظ محتدِمٌ وفيه للبرد سرٌّ غير ذى ضررِ
ضدّان ينعم جسم المرء بينهما كالغصن ينعم بين الشمس والمطرِ

وقال ابن رشيق : ومما قلته على عقب وداع :

ولم أدخلِ الحمام ساعةَ بينهمْ لأجل نعيم ،قد رضيت بِبُؤسِى[1]
ولكن لتجرى عَبْرتى مطمئنةً فأبكى ، ولا يدرى بذاك جليسِى

(١) طراز المجالس ١٢٢ .

وقال آخر :

وحمّامٍ كأنّ النار فيـــه مسعّرةٌ بنيرانِ الجحيمِ
دخلت أنا ومَنْ أهواه فيه فعاد لنا كجنّات النعيمِ

وقال آخر فى ذم حمّام :

وحمّامِ سُوءٍ وَخِيمِ الهوا قليل المياه كثير الزِّحَامْ
فمـا للقيام به من قعودٍ ولا للقعود به من قِيَامْ
حنيّاته عطفـــات القِسىّ وقطراته صائبات السِّهَامْ

وقال آخر فى تعجيل الخروج منه :

خذ من الحمام واخرجْ قبل أن يأخذ مِنْـكَا
حَدِّثَنْ عنه وإلا حدّثَ الحمّام عنْـكَا

وقال ابن رشيق :

ومُرْتَهنٍ لدَى الحمّام أضحى وحالاَه لأصحـــاب السَّعِيرِ
إذا سئموا العذاب أو استغاثوا أغاثُوهم بباب الزّمهـــرِيرِ
كذلك حاله حَـرّاً وبرداً ببيت الحوْض أو بيت الطّهورِ
وطال به انتظارُ مُـــواعدِيه فقـــد زاد الشقّ على النَّظِيرِ

وله أيضاً :

سأشكر للحمّام بدءاً وعودةً أيادىَ بِيضًا ما لهنّ ثمينُ
جلاك على عينىَّ عُريانَ حاسرا فرحتَ بتطليـقٍ وأنت قمين[1]
وطهّر قلبى من هـــواك ببارِدٍ وسُخْنٍ نقرَّ الجفن وهـــو سَخينُ

(١) ط : « تمين » . وما أثبته من ا ، ب .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : الحمّام يذكّرُ جهنم ، وينقّى الدَّرَن .

وقال علىّ رضى الله عنه: بئس البيت الحمّامُ! تُكشَف فيه العورات ، وترتفع فيه الأصوات ، ولا يُقرأ فيه آية من كتاب الله تعالى .

ودخله بعضُ الأمراء مع الرقاشى فقال له : امدحْه ، فقال : يُذْهب القَشافة ، ويعقب النظافة ، ويفُشّ[1] التُخمة ، ويطيّب النّعمة ، فقال: ذمّه ، فقال: يهتك الأستار ، ويؤلّف الأقذار ، ويذهب بالوقار .

* * *

قوله : « إذا شئت فالسرعة السرعة »، يقول : إذا شئت أن تقصد الحمّام فالزم السرعة ، وعجل الرجعة ، وكرّرهما تأكيداً ، والفعل الناصب لهما يلزم إضمارهمع التكرير ، فإذا أفردت جاز إظهار الفعل ، ونظيرهما قول العرب : الطريق ، الطريق ، والأسد الأسد وقال الشاعر :

* خلّ الطريق لمن يُبنى المنارُ لَهُ *

فلما سقط التكرير ساغ له إظهار الفعل . مطّلَعى : مصدر بمعنى طلوعى . أهل الحجاز يفتحون لامه فى المصدر وغيرهم يكسرها . ارتداد طرفك ، أى رجوع نظرك .

* * *

ثمَّ اسْتَنَّ اسْتِنَانَ الْجَوَادِ فِي الْمضْمارِ ، وَقَالَ لابْنِهِ : بَدَارِ بَدَارِ ! وَلَمْ نَخَلْ أَنَّهُ غَرَّ ، وَطَلَبَ الْمَفَرَّ . فَلَبِثْنَا نَرْقُبُهُ رِقْبَةَ الأَعْيَادِ ، وَنَسْتَطْلِعُهُ بالطَّلاَئِعِ وَالرُّوَّادِ ، إِلَى أَنْ هَرِمَ النَّهَارُ ، وكادَ جُرُفُ النَّهَارِ يَنْهَارُ . فَلَمَّا طَالَ أَمَدُ الانْتِظَارِ ، وَلاَحَتِ الشَّمْسُ فِي الأَطْمَارِ ، قُلْتُ لأَصْحَابِي : قَدْ تَنَاهَيْنَا فِي الْمُهْلَةِ ، وَتَمَادَيْنَا فِي

(١) يقال: فش الوطب ، أى أخرج مافيه من الريح

الرِّحْلَةِ ، إِلَى أَنْ أَضْعَنَا الزَّمَانَ ، وَبَانَ أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ مَانَ ، فَتَأَهَّبُوا لِلظَّعَنِ ، وَلاَ تَلْوُوا عَلَى خَضْرَاءِ الدِّمَنِ .

* * *

استنَّ استنان الجواد : جرى كما يجرى الفرس ، وإنما يقال : استنَّ فى كلامه إذا جرى فى غير طريق بتحريف ، ومنه قولهم : استنَّت الفِصال حتى القرعى[١] ، يريدون جرت الفصال وهى تلعب ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « فاستنَّت شرَفاً أو شرَفين » . وقال الشاعر يذكر طعنة خرج دمها فى جهة :

بمستنّةٍ كاستنان الخرو ... فِ وقد قطَع الحبلَ بالمِرْوَد[٢]

أراد المهر ، ويقال له : خروف وفلوّ ، وقد فسر « استنّت الفصال » بأن معناه أحسن رعيتها ، حتى كأنه صقَلها . والجواد : الفرس الكريم . المضمار : الطَّلَق تجرى فيه الخيل ، سمّىَ مِضماراً لأن الخيل تضمَّر فيه ، وذلك أنّ العرب كانت تسمّن الخيل نتستخرجها إلى المِضمار ، فتجريها طَلَقاً قدر ما تحتمل ، ثم تزيدها يوماً آخر فى الجرْى على ذلك ، ثم لا تزال تزيدها فى الطَّلق كل يوم ، حتى تجرى بها الأميال ، فيسيل عَرَق الخيل بذلك الجـرْى ، ويشتدّ لحمها بذلك التّضمير قال زهير :

تُضمَّر بالأصائل كلّ يومٍ ... تُسنّ على سنابكها القرونُ[٣]

القرون : دُفَع العَرق ، واحدها قَرْن .

وقوله : « بدار بدار » ، أى سبقاً سبْقاً ، وهو معدول عن بدر ، فيقول لابنه :

---

(١) مثل ، يضرب للرجل يفعل ماليس لأهل . جمهرة الأمثال ١ : ١٠٨

(٢) اللسان ـ خرف ، ونسبه إلى رجل من بنى الحارث .

(٣) ديوانه ١٨٧

أبدر بالجرى ، واسبق إلى الحمّام. لم نَخَل : لم نحسب. غرّ: خدع . نرقبه ، أى ننظر من أين يجىء ويروى : « نرقبه رقبة أهلّة الأعياد » .

وما أحسن قولَ ابن الزقّاق فى هذه الرِّقبة :

وشهرٍ أدرنا لارتقاب هــلاله ... جفونًا إلى نحو السماء موائلاَ[1]
إلى أنْ بدا أحْوَى المدامع أحورٌ ... يجرّ لأذيال الشَباب غــلائلاَ
فقلت له أهلاً وسهلاً ومرحباً ... بمن قد حوى طيب السَّمولِ شمائلاَ
أتطلبك الأبصار فى الجوّ ناقصاً ... وأنت كذا تمشى على الأرض كاملا

وله فى معناه :

لله شهرٌ مانظــرتُ هلالَهُ ... إلاَّ كنونٍ أو كعطفة لامِ[2]
حتى تبدّى لى أغنُّ مهفهفٌ ... بضيائه يَنْجَابُ كلُّ ظلاَمِ
فطفقت أهتِف بالأنام ضللتمُ ... وغلطتمُ فى عــدَّة الأيامِ
ما جاءنَا شهرٌ لأول ليلة ... مذ كانت الدنيا ببدر تمام

نستطلعه ، أى نلتمس طلوعه . الطلائع : الباحثون عليه . والروّاد: الطالبون له ، وأصل الطلائع الباحثون عن أخبار العدوّ ، والراصدون فى الطرقات ، الواحد طليعة ، وأصل الروّاد الطالبون للمرعى . هَرِم : شاخ ، ومعناه قارب أن يتمَّ . ينهار : ينهدم . والجُرُف : ما يأكله الوادى ، استعاره للنهار. لاحت : ظهرت. والأطمار : الثياب الخلَقة ، أراد أن ثوب الشمس وهو ضوءها قد تغيّر وبلى عند الغروب ، وبعضهم يستعمل هذه الاستعارات فى الشتاء وغروب الشمس .

ومما يستغرب من ذلك قول العلَوىّ الأصبهانىّ :

ومجلسِ شربٍ جئتُــه متطرِّباً ... عشيًّا وعينُ الشّمس فى الأفق تنعَسُ

(١) ديوانه ٢٣٨
(٢) ديوانه ٢٥٨ .

وقال ابن الرّومىّ :

كأنّ جنوح الشّمس ثم غروبها ... وقدجعلت فى مجنح الليل تمرض[1]

تخاوصُ عَينٍ بيْنَ أجفانهاالكرى ... يرنّق منها النّوم وهى تغمّضُ

وقال أيضاً :

إذا رتعتْ شمسُ الأصيل ونفّضتْ ... على الأفُقِ الغربىّ وَرْساً مُذَعزَعا[2]

وودّعت الدّنيا لتقضىَ نحبَهـــا ... وشـوّل باقى عمرهـا فتَشَعْشَعَا[3]

ولا حظت الأنوار وهى مريضةٌ ... وقدوضعت خدّاعلى الأرض أضْرَعَا

كما لاحظت عوّادُه عينَ مدنف ... توجّع من أوصابه ما توجّعا

أخبرنى ابن منصور ، قال :خرجتُ بخارج فاس عشيةمع فتى ورّاق ، فنظر إلى صفرة الشمس واستنشق برد النسيم ، وأنشدنى مرتجلاً :

انظر إلى الشمس فى الأصيلِ ... كأنّهَا وَجْنَتَا عليـــلِ

ورقّ هـــذا النسيمُ حتّى ... كأنمـــا يشتكى نحولى

وقال ابن الزّقاق :

وعشيةٍ لبستْ مِـــلاء شقيق ... تُزهَى بلونٍ للخدود أنيقِ[4]

أبقتْ بها الشّمسُ المنيرةُ مثلَ مَا ... أبقى الحياء بوجنتىْ معشوقِ

لو أستطيع شربتُها كلفـاً بها ... وعدلت فيها عن كئوسِ رحيقِ

وقال ابن سراج :

والشمس تنفض زعفـرانا بالرّبا ... وتبثّ مسكتهـا على الغيطان

---

(١) ديوان المعانى ٣٦١

(٢) ديوان المعانى ١ : ٣٦١ ، ومذعزعاً : مفرقا .

(٣) شول باقى عمرها ، أى لم يبق منه إلا القليل .

(٤) ديوانه ٣٠٦ وفيه : « لبست رداء شفيق »

وما أحسن قول الرّصافى فى معناه :

وعشىّ أنسٍ للسرور وقد بَدَا ... من دون قُرْص الشّمسِ ما يتوقّع (١)
سقطت ولم تملك يمينُك ردَّها ... فوددت يا موسى لَوَ انّكَ يُوشَعُ

وقال ابن الرومىّ فى طلوع الشمس من خلل السحاب وذكر امرأة :

تريك بياض غُرّتها ووجهاً ... كقرن الشّمس أغسق ثم زَالاَ
أصاب خصاصةً فبدا كليلاً ... كلاَ وانفلّ سائره انفلالا

قوله : « بدا كليلا » إشارة إلى أنه عندما بدا غاب بسرعة ، وأذكر « كَلاَ » فى المقامة التاسعة والثلاثين .

وقال ابنُ المعتزّ فى نحوه :

تظلّ الشمسُ ترمقنا بلحظٍ ... مريضٍ مدنَفٍ من خَلْفِ سِتْرِ (٢)
تحاول فتْقَ غيم وهو يأبَى (٣) ... كعَنّينٍ يريدُ نكاح بِكْرِ

قوله : «تناهينا» ، أى بلغنا النهاية . والمهلة : التراخى ، يقول : قد تراخينا فى انتظاره حتى بلغنا الغاية فى ذلك . «تمادينا فى الرحلة» ، هذا على حذف مضاف للعلم به ، تقديره : تمادينا فى ترك الرحلة وانتظارها ، ومثل هذا الحذف جائز فى النظم والنثر وأنشد أبو على :

أنا النذيرُ لكمْ منّى مجاهرةً ... كى لا أُلامَ على نهيى وإنذارى

أى على تركى النهى والإنذار ، وقال آخر :

وأهلك مهرَ أبيك الدّوا ... ء ليس له من طعامٍ نصيبِ

(١) ديوانه ١٠٤ ، مع اختلاف فى الرواية .
(٢) ديوان المعانى ١ : ٣٦٠ ، وفيه : « بلحظ خفى » .
(٣) ط : «فتح غيم» ، وما أثبته من ديوان المعانى .

أى فقد الدواء ، وجاء فى القرآن ﴿واسأل القرية التى كنا فيها﴾[١] أى أهل القرية ، و﴿هى أشدُّ قوّةً من قريتك﴾[٢]، أى من أهل قريتك ، ومثل هذا كثير فى القرآن والكلام الفصيح ، بما لا يتمّ المعنى إلا بتقديره ؛ فالذى غلّط الحريرىّ فقال : لو تمادتْ بهم الرحلة لكانوا فى سير متّصل، قد جهل الكلام الفصيح فأراد : طالتْ بنا هذه السفرة . وتمادى الشىء فهو متمادٍ ، إذا طال فيه المدى ، وهو الغاية البعيدة . يقول : تأخّرنا عن السفر اليوم لتمادينا فى انتظاره ، فطالت علينا السفرة لعطلة السفر ، حتى أضعنا اليوم الذى انتظرناه فيه حيث لم نسافر فيه . والزمان : اليوم . بان : تبيَّن . مان : كذب ؛ يقال منه : مان يمين مَيْناً ، وأما مَانَهُ يَمُونه مَوْناً ، فقام بمؤنته . قوله : « فتأهّبوا »، استعدوا . الظعن : الرحيل . ولا تلوُوا : تعرِّجوا . خضراء الدمَنِ : عشب المزابل، هى حسنة المنظر سيّئة المخبر ، وإذا يبست لم ينتفع بعُودها لخوره وضعفه ، فشبّه بها أبا زيد لحسن ظاهره فيما أبدى لهم من فصاحته ، وسوء باطنه فى كذبه وإخلاف وعده ، حتى عطّلهم عن سفرهم نهاراً فى انتظاره ، قال النبى صلى الله عليه وسلم : إياكم وخضراء الدِّمَن ، فقيل له : وما خضراء الدمن ؟ فقال : « الجارية الحسناء فى المنبت السوء » .

* * *

وَنَهَضْتُ لِأَخْدِجَ رَاحِلَتِى ، وَأَتَحَمَّلَ لِرِحْلَتِي ، فَوَجَدْتُ أَبَا زَيْدٍ قَدْ كَتَبَ ، عَلَى الْقَتَبِ :

يَا مَنْ غَدَا لِى سَاعِدًا وَمُسَاعِدًا دُونَ الْبَشَرْ
لَا تَحْسِبَنْ أَنِّى نَأَيْتُ لَكَ عَنْ مَلَالٍ أَوْ أَشَرْ
لَكِنَّنِى مُذْ لَمْ أَزَلْ مِمَّنْ إِذَا طَعِمَ انْتَشَرْ

(١) سورة يوسف ٨٢. (٢) سورة محمد ١٣

قالَ : فأَقْرَأْتُ الْجماعَةَ الْقَتَبَ ، لِيَعْذِرَهُ مَنْ كانَ عَتَبَ فأُعْجِبُوا بخُرَافَتِهِ ، وَتَعَوَّذوا مِنْ آفَتِهِ .

ثمّ إنا ظَعَنَّا ، وَلَمْ نَدْرِ مَنِ اعْتَاضَ عَنَّا .

* * *

قوله : «أحدج» : أى اجعل عليها الحدَج ، وهو مركب من مراكب النساء ، وأراد أرحل الناقة . وراحلته : ناقته . أتحمَّل لرحلتى ، أو قرِحْلى للرحيل ، يقال : تحمَّل القوم ، إذا عبُّوا أحمالهم وارتحلوا . والقَتَب : خشب الرَّحْل . قوله : «ساعدا» ، أى ذراعا يستعين به . مساعدا : موافقا . نأيتك : بعدت عنك . أَشَر : بطر وعدم شكْرٍ ، يقال : أَشَر الرّجل يأشِر أَشَراً ، إذا بطر ، قال الأخطل يذكر بنى أمية :

أعطاكمُ اللهُ جَدًّا تُنْصَرونَ بِهِ ... لا جَدّ إلاصغيرٌ بَعْـدُ محتَقَرُ[1]

لم يأشَرُوا فيه إذ كانُوا مَوَالِيَه ... ولو يكون لقومٍ غيرهم أشِرُوا

قوله : «مذ لم أزل» ، أى مذ بنْت ووجدت . انتشر : ذهب . عتب : لام وسخط فعله . خُرافته : حديثه الملهِى .

[حديث خرافة]

وحديث خُرافة[2] مَثَلٌ سائر على ألسنة الناس فى القديم والحديث ، يضرَب لكلّ حديث لا حقيقة له . ووقع فى أمثال المفضّل بسند يصل إلى عائشة رضى الله عنها ، أنها قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : حدّثنى حديث خُرافة ، فقال : رحم الله خرافة ، كان رجلاً صالحًا ، فأخبرنى أنه خرج ذات ليلة فلقى ثلاثة نفر من الجنّ

(١) ديوانه ١٠٤ ، وفيه : « أعطاهم الله » .

(٢) انظر الميدانى ١ : ١٣١ ، الفاخر ١٦٨ ، اللسان ١٠ : ٢١٤ .

فسبّوه ، فقال أحدهم : نعفو عنه ، وقال آخر نقتله ، وقال آخر: نستعبده ، فبينما هم يتشاورون فى أمره ، إذ ورد عليهم رجل، فقال: السلام عليكم . فقالوا : وعليك السلام ، قال : وما أنتم ؟ قالوا : نفر من الجنّ، أسَرْنا هذا فنحن نأتمر فى أمره ، فقال : إن حدّثتكم حديثاً عجيباً ،أتشركونى فيه؟ قالوا : نعم ، قال: إنى كنتُ ذا نعمةٍ فزالت ، وركِبَنى دَيْن، فخرجت هارباً ،فأصابنى عطش شديد،فسرت إلى بئر فنزلت لأشرب ، فصاح بى صائح من البئر: مه ! فخرجت منها ولم أشرب ، فغلَبنى العطش ، فعدت ،فصاح بى ، ثم عدت الثالثة فشربت ، ولم ألتفت إليه . فقال : اللهم إن كان رجلا فحوِّله امرأة ، وإن كان امرأة فحوِّلها رجلاً ، فإذا أنا امرأة،فأتيت مدينة فتزوّجنى رجل ، فولدت منه ولدين ، ثم عدتُ إلى بلدى ، فمررت بالبئر التى شربت منها ، فنزلت فصاح بى كما صاح فى الأول ، فشربت ولم ألتفت له، فدعا كالأول ، فعدتُ رجلاً كما كنت. فأتيت بلدى ، فتزوّجت امرأة ، فولدت منها ولدين ، فلى ابنان من ظهرى وابنان من بطنى. فقالوا: إن هذا لعجيب ، أنت شريكنا ،فبينما هم يتشاورون إذ ورد عليهم ثور يطير فلما جاوزهم، إذا رجل بيده خشبة ، وهو يحفزنى إثره ، فوقف عليهم فسلّم ، فردّوا ، وسألهم،فردّوا عليه مثل ردهم على صاحبهم ؛ فقال :إن حدّثتكم بحديث أعجب من هذا أتشركونى فيه ؟ قالوا: نعم ، قال : كان لى عمّ ، وكان موسراً، وكانت له ابنة جميلة ، وكنّا سبعةَ إخوة ، وكان لعمّى عجلٌ يربّيه ، فانفلت ، فقال: أيكم يَردّه فابنتى له؛ فأخذت خشبتى هذه ، وائتزرت ، ثم حفزت فى إثره وأنا غلام ، وقد شبْت ، فلا أنا ألحقه ولاهو يكلّ ؛ فقالوا : إن هذا لعجب ، اقعد فأنت شريكنا.فبينما هم يتشاورون ، إذ ورد عليهم رجل على فرس أنثى . وخلفه غلام على فرس ذكر ،فسلّم كما سلّم صاحباه فردّوا عليه كردّهم على صاحبيه . فسألهم فأخبروه الخبر ، فقال لهم : إن حدّثتكم بحديث أغرب من هذا ،أتشركونى فيه ؟ فقالوا نعم ، قال : كانت لى أمّ خبيثة، ثم قال للفرس الأنثى الذى تحته : أكذلك هو

فقالت : برأسها نعم — قال : وكنتُ أتَّهِمُها بهذا العبد — وأشار إلى الفرس ، الذى تحت غلامه: أهكذا ؟ فقال برأسه : نعم — فوجَّهت بغلامى هذا الراكب ذات يوم فى بعض حاجاتى ، فحبسته عندها فأغفى ، فرأى فى منامه كأنها صاحت صيْحة ، فإذا هى بجُرَذٍ قد خرج ، فقالت : اسجد ، فسجد ، ثم قالت : اركب فكرب[1] ، ثم قالت : ادرس فدرس ، ثم دعت برَحًا فطحنت قدَح سَوِيقٍ ، فأتت به الغلام ، فقالت له : ائت به مولاك ، فأتانى به ، فاحتلت عليهما حتى سقيتهما القدح ، فإذا هى فرس أنثى ، وإذا هو فرس ذكر ، قال : أكذلك ؟ قالت الفرس الأنثى برأسها : نعم ، وقال الفرس الذكر برأسه : نعم ، فقالوا إن هذا أعجب شىء سمعناه ، أنت شريكنا . فأجمع رأيهم فأعتقوا خُرافة فأتى النبىَّ صلى الله عليه وسلم فأخبره بهذا الحديث ، فما جاء من الأحاديث المحالَة نُسِب إلى خرافة صاحب الحديث .

* * *

قوله : « آفته » أى ضرره . ظعنًا : رحلنا . اعتاض : استبدل .

(١) الفاخر : « احصد فحصد » .

المقامة الخامسة وهي الكوفية

حكى الحارثُ بن همّام قالَ : سَمَرْتُ بالكوفةِ في ليلةٍ أديمُها ذو لَوْنين ، وقَمَرُها كتَعْويذٍ مِنْ لَجَيْن ، مَعَ رُفْقةٍ غُذُوا بلِبانِ البَيان ، وسَحَبُوا على سَحْبانَ ذَيلَ النِّسْيانِ ، مَا فِيهِمْ إلاَّ مَنْ يُحفَظُ عَنْهُ وَلا يُتَحَفَّظ مِنهُ ، وَيميلُ الرَّفيقُ إليهِ ، وَلا يميلُ عَنْهُ ، فاسْتَهْوَانَا السَّمَرُ ، إلَى أنْ غَرَبَ القَمَرُ ، وَغَلَبَ السَّهَرُ . فلَمَّا رَوَّق اللَّيْلُ البَهيمُ ، وَلَمْ يَبْقَ إلاَّ النَّهْوِيمُ ، سَمِعْنَا مِنَ البَاب تَبأَةَ مُسْتَنْبِحٍ ، ثُمَّ تلَتْهَا صَكَّةُ مُسْتَفْتِحٍ ، فقُلْنَا : مَنِ المُلِمُّ ، فِي اللَّيلِ المُدْلَهِمّ ؟ فقال :

* * *

[الكوفة]

سَمَرْت بالكوفة . الكوفة بلد بالعراق مشهور بينه وبين بغداد ثلاثون فرسخاً، وسميَتْ كوفة لاستدارتها ، أخذت من الكوفان ، وهي الرملة الشديدة البياض ، وقيل : سمِّيت كوفة لاجتماع الناس فيها ، من قولهم : تكوَّف الرمل تكوّفاً ، إذا ركب بعضُه بعضاً ، وقيل : سمِّيت كوفة، لأنها قُطعت من البلاد، من قولهم : أعطيت فلاناً كَيْفة ، أى قطعة ، وكفت أكيف كَيْفا : قطعت . والكوفة « فُعلة » منه ، قُلبت الياء واواً للضمّة التى قبلها .

وهى مدينة العراق الكبرى ، والمِصْر الأعظم وقُبّة الإسلام ، ودار هجرة المسلمين ، وأوّل مدينة اختطّها المسلمون بالعراق .

وذكر شيخنا أبو الحسن بن جُبير[1] فى رحلته حاجًّا، أنه دخل الكوفة فى أوّل محرَّم سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، فقال : هى مدينة كبير ، قد استولَى الخراب على أكثرها ، فالعامر منها أقلّ من الخراب ، ومن أسباب خرابها قبيلة خفاجة المجاورة لها ، وهى لا تزال تضرّبها ، وكفاك بتعاقب الأيّام والليالى ما حقّاً ومنيّاً ! وبناؤها بالآجرّ خاصّة ، ولا سورَ لها . والجامع العتيق آخرها مما يلى شرق البلد ، ولا عمارة تتّصل به من جهة الشرق . وهو جامع كبير، فى الجانب القبلىّ منه خمس أبلطَة ، وفى سائر الجوانب بلاطتان متّسعتان ، وهى على أعمدة من السَّوارِى المصنوعة من صَميم الحجارة المنحوتة قطعة على قطعة ، مُفْرَغة بالرَّصاص ، ولا قسىّ عليها ، وهى فى نهاية من الطول متّصلة بسقف المسجد ، فتحار العيون فى تفاوت ارتفاعها، فما رُئىَ فى الأرض مسجد أعْلَى سقفاً منه ، ولا أطول أعمدة ، ولهذا الجامع آثار كثيرة منها بيت بإزاء المحراب عن يمين مستقبل القبلة ، يقال إنه كان مُصَلَّى الخليل إبراهيم عليه السلام ، وعليه ستر أسود صونَاله ، ومنه يخرج الخطيب لابساً ثياب السواد للخطبة ، والناس يزدحمون على هذا البيت للصلاة فيه ، وبمقربة هذا البيت عن يمين القبلة محراب محلّق عليه بأعواد الساج ، كأنه مسجد صغير مرتفع عن صحن البلاط ، هو محراب علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ،وفيه ضربه الشقىّ عبدالرحمن بن مُلْجَم ، فالناس يصلُّون فيه باكين داعين ، وفى الزّواية من البلاط القبلىّ المتّصل بآخر البلاط الغربىّ شبه مسجد صغير محلّق عليه أيضا بأعواد الساج ، وهو مَفارُ التَّنُّور الذى كان آيَةَ نوح عليه السلام ،ويتصل بالجدار القبلىّ فضاء ، يقال إنه كان منشأ السفينة .

ومع هذا الفضاء دار علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ـ تلقّينا هذه الآثار

---

(١) هو محمد بن أحمد بن جبير الأندلسى البلنسى الرحالة ، قام برحلته الأولى إلى المشرق من غرناطة سنة ٥٧٨ ، وعاد إلى وطنه سنة ٥٨١ ، ووصف مشاهدته فى كتابه المعروف برحلة ابن جبير .

من أشياخ البلد وفى الجهة الشرقيّة بيت قبر مَسلمة بن عَقيل ، وفى جوف الجامع سقاية كبيرة فيها ثلاثة أحواض كبار ، وفى غربىّ المدينة على مقدار فرسخ المشهد الشهير المنسوب لعلى بن أبى طالب حيث بركتْ ناقته ، وهو محمول عليها ميِّتاً ، وفيه قبره ، والله تعالى أعلم بصحة ذلك . والفُرات فى الجانب الشرقىّ على قدر نصف فرسخ ، والجانب الشرقى كله حدائق نخل ماتفّة يمتد سوادها امتداد البصر[1] .

* * *

قوله : « سمرت » أى ذهب نومى . الأديم : الجِلد ، وأراد أنّ لون الليلة فيه سواد وبياض ، لأن قمرها ناقص ، ولذلك جعله . كتعويذ من لُجَينٍ ؛ وهو خرز فضة ، يُستعمل مستديراً استدارة القمر ، وبعض الدائرة ، فارغ فيربط فى الدائرة خيط ، فيعلّق فى أعناق الصبيان .

[مما ورد فى الهلال من الشعر]

وقال فيه السكرادى :

قُمْ سَلِّ هَمِّى بالمدا ... م ففيه همّ قد أمضَّهْ
أَوَ ما ترى قمر السَّما ... ء كأنه تعويذ فِضَّهْ
فـإذا ألمَّ به المحا ... ق تخالُه فى الخدِّ عَضَّهْ

وعلى معنى البيت الآخر ، قال إسماعيل القاضى يصف الهلال :

اسقنِى قبل صاحبى ... واخشَ صَرْفَ النوائبِ
فالهلال الذى يـلو ... حُ خلال الغَيَاهِبِ

(١) رحلة ابن جبير ١٨٩ ، ١٩٠ .

مثل فخ اللجين صيـ ـغ لصيد الكواكبِ

وقال القاضى أبو محمد عبد الوهاب :

لمّا رأيت الهلال مُنطوياً ... فى غرّة الفجر قارن الزُّهَرَهْ
شبَّهْتُه والعيانُ يشهد لى ... بصولجانٍ أوفى لضربِ كُرَهْ

وقال القاضى أبو الحسن بن لبّال :

انظر إلى الهلال إذْ ... لاح بهىّ المنظرِ
كزورقٍ من فضةٍ ... وسط لُجَينٍ أخضَرِ

أخذه من قول ابن المعتزّ :

أهلاً بفِطْرٍ قد أنار هلالُهُ ... فالآن فاغْدُ إلى المُدام وبَكِّرِ (١)
وانظر إليه كزورقٍ من فضَّةٍ ... قد أثقلته حمولة من عنبَرِ

وله أيضاً :

أهلاً وسهلاً بالنّاى والعود ... وشُربِ كأسٍ بكفٍّ مَقْدُودِ
قد انقضت دولةُ الصيام وقد ... بشَّر مرأى الهلال بالعيدِ
يتلُو الثريا كفاغرٍ شَرِهٍ ... يفتح فاه لأكْلِ عنقُودِ

وقد شبَّهه ابنُ المعتزِّ بقُلامة الظفر ، فأحسن حيث يقول :

وجاءنِى فى قميص اللَّيل مستتراً ... يستعجل الخطوَ من خَوْفٍ ومن حَذَرِ
ولاح ضوء هلالٍ كاد يفضحه ... مثلُ القُلامةِ قد قُدَّت من الظُّفُرِ

---

(١) ديوانه ١١٦ . ديوان المعانى ١ : ٣٤٠

وأخذه من قول الأعرابيّ :

كأنَّ ابن مُزنتها جانحًا فَسِيط لدى الأفق من خِنْصَرِ (١)

ابن مزنتها : الهلال . الفسيط : قُلامة الظفر .

قوله: «غذوا» : أى ربّوا به وجُعل غذاءهم ؛ واللِّبان للآدميات ، واللبن للآدميات وغيرهنّ . سَحبوا: جرّوا. سحبان : فصيح العرب ، وانظره فى السادسة عشرة . ذيل النسان :طرَفه ،يريد أنهم بفصاحتهم أَنْسَوْا ذكر سَحبان، فكأنهم جرّوا عليه ثوب النسيان حتى غطّوْه ، فلم يذكره أحد من هؤلاء ، وأصل ذلك أن يُسحب ذيل الثوب على أثرٍ ليخفى ، كقول امرىء القيس :

* تُعفّى بذيل الدّرع إن جئتُ موئلى *

وكقوله :

خرجْتُ بها تمشى نَجرُّ وراءنَا على أثَرَيْنَا ذيلُ مِرْطٍ مُرحّلِ (٢)

قوله :«يُحفظ عنه» ، أى هم علماء يروون العلم فيحفظ عنهم. يُتحفّظ ، يُتحذّر ، وأخذ هذا من قول سليمان بن عبد الملك : قد أكلتُ الطّيب ، ولبست اللّين ، وركبت الفارِهَ ، وتبطّنت العذراء ، فلم يبق لى من لذتى إلا صديق أطرح فيما بينى وبينه مؤنة التحفّظ. فهذا الذى طلبه سليمان وجده الحريرىّ فى أصحابه، وأصل التحفّظ الاجتهاد فى حفظ الشىء وقلة الغفلة فى الأمور ، كأنه على حذر ، وأنشد ثعلب :

إنّى لأبغض عاشقًا متحفّظًا لم تتهمه أعْينٌ وقلُوبُ

---

(١) اللسان ــ فسط ، ونسبه إلى عمرو بن قميئة وهو أيضا فى ديوان المعانى ١ : ٣٣٩

(٢) ديوانه ١٤

قوله: «يميل الرفيق إليه» ، تقول : مِلْت إلى فلان، إذا أحببتَه وتقرّبتَ منه ، ومِلْت عنه، إذا كرهتَه وبَعُدت عنه. والرفيق: الصاحب يُرتفق به فى السفر. قوله : «استهوانا»، هوَى بنا وشغلنا . والسَّمَر : الحديث يُسمر عليه . وذكر الحريرىّ أن أصل السَّمَر ظل القمر ، والسَّمَر: الحديث ، ومنه أخذ السمير ، وغالب أحوال السّمّار أنهم يتحدثون فى ظل القمر ـ وذكر هذا فى تفسير الرابعة والأربعين ـ وهو الأصل ، ثم اتسع فيه فصار الجلوس بالليل للحديث يسمى سَمَراً ، على أىّ حال اتفق . روّق :ضرب رِواقه ، والرواق. الثوب يُستظلّ به من الشمس ، يريد أنّ الليل ضرب عليهم من ظلامه رواقاً فاحتجب عنهم به القمر . والبهيم : الخالص السواد ، والبهيم الخالص من كلّ لون . والتهويم : النوم بالليل ، والتغوير : النوم فى القائلة ، وقد هَوّم الرجل، إذا أسقط النُّعاس رأسَه فانتبه بسقوطه فرفعه، فحقيقته سجود الرأس من النعاس ، قال ذو الرُّمّة فى ذلك :

وأشعثَ مثل السَّيف قدلاَحَ جسمَه ... وجيفُ المهارَى والهموم الأباعدُ[1]
سقاه النُّعاس كأسَ سكر فرأسُه ... لدين الكَرَى فى آخر اللّيل ساجِدُ[2]

ويقال : خفق رأسه فهو خافق ، قال ذو الرّمة :

وخافِقِ الرأس فوق الرَّحْلِ قلت له ... زُعْ بالزّمام وجوْزُ الليل مَرْكُوم[3]

وقال الرصافىّ[4] فأحسن :

ومجدِّين للسُّرَى قَدْ تعاطَوْا ... غفواتِ الكَرَى بغير كئوسِ
جَنَحُوا وانْحنَوْا على العيسِ حتَّى ... خِلْتُهم يلثمون أيدى العِيسِ
نبذوا الغُمض وهو حلْوٌ إلى أن ... وجدوه سُلاَفَةً فى الرءوس

(١) ديوانه ١٣٠ .
(٢) الديوان : « سقاه الكرى كأس النعاس وما درى » .
(٣) ديوانه ٥٧٩ .وزع بالزمام ، أى اعطف الناقة بالزمام .
(٤) هو أبو عبدالله محمد بن غالب الرصافى ، والأبيات فى ديوانه ١٠٣ .

قوله : « نبأة » ، أى صوت . مُستنبح : يحكى نُباح الكلاب ، وكان الرجل إذا تلف بالليل بالصحراء ولم يدر أين يتوجَّه ، حاكى بصوته نُباح الكلب ، فإن كان قريباً من العمران نَبَحت لنُباحه كلاب الحىّ ، فسمع أصواتها ، فقصد الحىّ . تتسمَّى العرب مَنْ يفعل هذا المستنبِح . وأنشد أبو علىّ فى نوادره :

ومستنبحٍ بات الصدى يستتيهُهُ ... فتاهَ وجَوْزُ الليل مضطرب الكِسْرِ (١)
رفعتُ له ناراً تَقوباً زنادُها ... تُليح إلى السارى : هلُمَّ إلى قِدْرِى

وقال حسان بن ماثل :

ومستنبحٍ فى جُنح ليلٍ دعوتُه ... بمشبوبة فى رأس ضَمْدٍ مقابل
فقلت له أقبل ، فإنَّك راشدٌ ... وإنَّ على النار النّدى وابنُ ماثِل

وقد أنشد أبو تمام فى حماسته فى باب الأضياف فى المستنبح ما فيه كفاية ؛ فلينظر هنالك .

قوله : «تلتها» ، أى تبعتها . صكّة : دفعة . مستفتِح : طالب فتح الباب . الملمّ : الزائر : المدلهمّ : الشديد السواد ، من الدّهمة ، ولامه زائدة .

* * *

يا أَهْلَ ذَا الْمَغْنَى وُقِيتُمْ شَرًّا ... ولاَ لَقِيتُمْ مَا بَقِيتُمْ ضُرًّا
قَدْ دَفَعَ اللَّيْلُ الَّذِى ا كْفَهَرَّا ... إِلى ذَرَاكُمْ شَمِثاً مُغْبَرًّا
أَخَا سِفارٍ طالَ وَاسْبَطَرَّا ... حَتَّى انثَنَى مُحْقَوْقِفاً مُصْفَرًّا
مِثْلَ هِلاَلِ الأُفقِ حِينَ افتَرَّا ... وَقَدْ عَرا فِنَاءَكُمْ مُعْتَرًّا
وَأَمَّكُمْ دُونَ الأَنَامِ طُرًّا ... يَبْغِى قِرًى مِنْكُمْ وَمُسْتَقَرًّا

(١) أمالى القالى ١ : ٢١٠ ، ونسب أبو عبيد البكرى فى اللآلى هذا الشعر إلى رجل من بنى الحارث بن كعب . وجوز الليل : وسطه ، وكسر البيت : جانبه .

فَدُونَكُمْ صَيْفًا فنُوعًا حُرًّا يَرْضَى بِمَا احْلَوْلَى وَمَا أَمَرَّا
وَيَنْثَنِي عَنْكُمْ يَنُثُّ الْبِرًّا

* * *

المغنى : المنزل . وقيتم : كفيتم ، وإنما دعا لهم بهذا ، لأن فى حديث أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « يوشك قلوبُ الناس أن تملأ شرًّا حتى يجرى الشرّ فضلاً بين الناس فلا يجد قلباً يدخله » .

اكفهرّ : تراكم ظلامه وكثر . ذَرَاكم : منزلكم وكنّكم ، وكلُّ ما استترت به من ريح أو مطر أو شمس فهو ذَرًا . شَعِثًا : متغيّر الشعر ، والشعث : ترك غسل الرأس حتى يتغيّر . مغبرًّا : عليه الغبار ، وفى الحديث عن جابر بن عبدالله رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً وسخت ثيابه ، فقال : « أما وجد هذا ما ينقى به ثيابه ! » . ورأى رجلاً شَعِث الرأس ، فقال : « أما وجد هذا ما يسكّن به شَعره ! » . أخاً سِفار : صاحب أسفار ، أى ملازم لها . اسبطرّ : امتدّ وطال سفره . انثنى : رجع وعاد . محقوقفاً : منحنياً . الأنق : ناحية السماء . افترّ : انفتحت أطرافه ولم يتقارب ، كأنه فرّ هذا من هذا ، ومنه فررت الدابة ، وافترّ : ضحك ، وشبّه انحناؤه من السفر بدائرة القمر الناقص ، وأكثر ما يوقعون هذا التشبيه على الانحناء من الكبَر ، قال الشاعر :

تقوّس بعد مَرّ العُمر ظهرى وداستنى اللّيالى أىَّ دَوْسِ
فأمشى والعصا تَهْوِى أمامِى كأنّ قوامَها وترٌ لقوسِى

وقال ابن لبّال :

قوّس ظهرى المشيب والكِبَرُ والدّهر ياعمرُو كُلُّهُ عِبَرُ
كأننى والعصا تدبّ معى قوسُها وهى فى يدى وَتَرُ

قوله : « عَرَا » : قصد . فناءكم : منزلكم ، وفناء الدار : ما أحاط بها من الأرض فحمته . معترًّا : قاصدًا لطلب معروفكم ، أمّكم : قصدكم . طُرًّا : أجمع . يبغى قِرًى : يطلب طعاماً . احلولى : اشتدّت حلاوته . ينُثّ : يفشى وينشر . البرّ : الإحسان .

* * *

قال الحارثُ بن همَّامٍ : فلما خَلَبَنَا بعُذُوبةِ نُطْقِهِ ، وَعَلِمْنَا مَا وراءَ بَرْقِهِ ، ابْتَدَرْنَا فَتْحَ البابِ ، وَتَلَقَّيْنَاهُ بالتَّرحابِ ، وَقُلْنَا لِلغُلامِ : هَيَّا هَيَّا ، وَهَلُمَّ مَا تَهَيَّا .

فقال الضَّيف : وَالَّذِى أَحَلَّنى دَارَكُمْ ، لاتَلَمَّظْتُ بِقِرَاكُمْ ، أَوْ تَضَمَّنُوا لِى أَلاَّ تَتَّخِذُونِى كَلاًّ ! وَلاَ تَجَشَّمُوا لأَجْلِى أَكْلاً ؛ فَرُبَّ أَكْلَةٍ هَاضَتِ الآكِلَ ، وَحَرَمَتْهُ مَآكِلَ ، وَشَرُّ الأَضْيَافِ مَنْ سَامَ التَّكْلِيفَ ، وَآذَى المُضِيفَ ، خُصُوصاً أَذًى يَعْتَلِقُ بالأَجْسَامِ ، وَيُفْضِى إِلَى الأَسْقَامِ ، وَمَا قِيلَ فِى المَثَلِ الذى سَارَ سَائِرُهُ : « خَيْرُ الْعَشَاءِ سَوَافِرُهُ » ، إلاَّ لِيُعَجِّلَ التَّعَشِّى ، وَيُجْتَنَبَ أَكْلُ اللَّيْلِ الَّذِى يُعْشِى ، اللَّهُمَّ إِلاَّ أن تَقِدَ نارُ الْجُوعِ ، وَتَحُولَ دُونَ الْهُجُوعِ .

* * *

قوله : « خلَبنا » ، أى خدعنا . علمنا ماوراء برقه ، يريد أن ما أبدى لهم من الكلام الفصيح دلّهم على ما عنده من العلم ، كما أن البرق إذا ظهر ولمع عُلِم ماوراءه من المطر . ابتدرنا : استبقنا ، الترحاب : من قولهم . مرحبا مرحباً . هيّا هيّا ، أى سق سق . هلم ما تهيّا ، أى أحضِرْ ماتيسر . لاتلمّظت بقِراكم : لا تذوّقت بطعامكم ،

وأصل التلمّظ تتبع اللسان ما بقى من الطعام فى الفم بعد الأكل . كَلا : ثقيلاً ، وفلان كَلٌّ على أهله ، إذا لم يكفهم مؤنة نفسه ، والكَلّ : الإعياء ، وجمعه كلول ، وعلى فلان كلٌّ كثير ، قال النابغة الجَعْدِىّ :

رأيتم بنى سعدٍ كلولاً كثيرةً شهيدٌ بذاك ابنا حُمادِ بن أحمرا (١)

تجشّموا : تكلفوا . أكلا : طعاما ، والأكلة : الغداء والعَشاء ، والأصل فى هذا أنّ الأكل بالفتح ، مصدر أكل ، وبالضمّ ما أُكِل ، والأكلة بالفتح : المرّة الواحدة ، وبالضم اللقمة ، وبالكسر هيئة الأكل . هاضت : أضعفت ، وأدخلت عليه هيضةً ، وهى القىء والإسهال ، وأصل المثل : رب أكلة تمنع أكلات ؛ وقال ابن هرمة :

ورُبّتَ أكلةٍ منعت أخاها بلذّة ساعةٍ أكلاتِ دَهْرِ
وكمْ من طالب يُشْفَى بشىء وفيه هلاكه لو كان يَدْرِى

والمآكل : جمع مأكلة أو مأكل ، وهى الأُكُل ، وهى أيضاً مايؤكل . سامَ التكليف ، أى عرّض مضيفه إلى تكلّف مايشقّ عليه . والأذى : الضرر ، والمضيف : صاحب المنزل . يفضِى : يئول . سار سائره : انتشر التحدّث به ومشى فى الناس . خير العشاء سوافره ؛ بواكره ، أى ماأكل منه بضوء النهار ، واحدها سافرة ، والسافرة : المرأة التى سَفَرت نقابها عن وجهها ، أى كشفته ؛ فكأن اللقمة إذا أبصرتها عند أكلها قد سَفَرت الظلام عن نفسها ، وتُجمع على سوافر على هذا المعنى ، حكى أبو بكر بن شعبان النحوىّ ، قال : دخلت على محمد اليزيدىّ وهو يتغدّى ، فقال : يا أبا بكر ، خيْر الغداء بواكره ، فخير العشاء ماذا ؟ فقلت : لا أدرى ، فقال : دخلت على حسين بن الخادم ، وهو يتغدّى فقال ::

(١) ديوانه : ٥٦

يا أبا سليمان ، خير الغداء بواكره ، فخير العشاء ماذا ؟ فقلت : لا أدرى ، فقال : كنت بحضرة الرشيد وهو يتغدّى ، فدخل الأصمعىّ ، فقال : يا أصمعىّ ، خير الغداء بواكره ، فخير العشاء ماذا ؟ فقال: بواصرُه ، يعنى مايُبصَر من الطعام قبل الظلام . وحكى أبو يعقوب فى الغداء التأخير. فقال : قال الحكيم ـ وقيل هو لعلىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه ـ من سرّه البقاء ولا بقاء . فليبكر الغداء ، وليباكر العشاء ، وليخفف الرّداء ـ يريد ثقل الدَّين .

التعشّى : أكل العشاء ، وهو ما يؤكل بالعشىّ . يُعشِى : يورث العَشَا ، وهو سواد البصر ليلا ، قال ابن دُرَيد :

وأرى العَشَا فى العين أكثر ما يكون من العَشاء[1]

أراد من تأخير العشاء ، لأن أكل الطعام بالليل يحدث ضعف البصر أكثر من غيره ، وقال كشاجم :

ونَديمٍ مخالفٍ لا يشاء الّذى أشا[2]
هو فى الصّحْوِ لى أخ وعدوّ إذا انْتَشَى
اقترحت العَشَاء يو ماً عليه فأدْهَشَا
ساعةً ثم قالى لى : العَشا يورث العَشَا

كأن هذا التطبّب أخذه كشاجم من قول [ضيف] الصاحب بن عباد ، قال الصاحب : ما أفحمنى أحد كأبى الحسن البديهىّ ، فإنه كان عندى ، فقدّمت إليه فاكهة ، فأمعن فى المشمش ، فقلت : المشمش يلطّخ المعدة ، فقال : لا يعجبنى المضيف

(١) ديوانه ٣٠ . والعشا المقصور داء فى العين ، والممدود الأكل عشيا .
(٢) ديوانه ١٠٦ .

إذا تطبّب ، فودِدت أنى لم أقلها .

وورد النهى عن ترك العشاء فى حديث أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لاتدَعوا العَشاء ، ولو بكفٍّ من حَشَفٍ[1] ، وإنّ تركه مَهْرَمَةٌ » .

وقوله : «تحول دون الهجوع» ، أى تمنع من النوم ، وجاء فى الحديث النّهى عن التكلف ، قال سفيان : ذهبت أنا وصاحبٌ لى إلى سلمان ، فقال : لولا أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نَهى عن التكلّف لتكلّفت لكم ، ثم جاء بخبز وماح ، فقال صاحبى : لو كان فى ملحنا صَعْتَر ! فبعث سلمان مِطْهرته[2] ، فأرهنها[3] ، فجاء بصعتر ، فلما أكلنا قال صاحبى : الحمد لله الذى أقنعنا بما رزقنا ، فقال سلمان : لو قنعت لم تكن مطهرتى مرهونة ! وجاء فى حديث جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « نعم الإدام الخلّ » ، وكفى بالمرء إثماً أن يسخط ماقُرّب إليه . الهجوع ، أى النوم .

* * *

قال : فكأنّهُ اطّلع على إرادتنا ، فرمى عن قوس عقيدتنا ، لاَ جَرَمَ أنّا آنسْنَاهُ بالْتِزَام الشَّرْطِ ، وأثنينا عَلَى خُلُقِهِ السَّبْطِ . وَلَمَّا أحْضَرَ الْغُلاَمُ مَا رَاجَ ، وَأذْكَى بَيْننا السِّرَاجَ ، تأمَّلْتُهُ فإذا هُوَ أبُو زيدٍ ، فقُلْتُ لِصَحْبِي : لِيَهْنِئْكم الضَّيْفُ الواردُ ، بل الْمَغْنَمُ البارِدُ ! فإن يَكُنْ أفَلَ قَمَرُ الشِّعْرَى فَقَدْ طَلَعَ قَمَرُ الشِّعْر ، أو استَسَرَّ بَدْرُ النَّثْرَةِ فَقَدْ تَبَلّجَ بَدْرُ النَّثْرِ . فَسَرَتْ حُمَيَّا المسرَّة فيهِمْ ، وَطَارَتْ السِّنَة عَنْ مَآقِيهِمْ ، وَرَفَضُوا الدَّعَةَ الَّتِى كَانُوا نَوَوْهَا ،

(١) الحشف : ردىء التمر . (٢) المطهرة : إناء يتطهر به .
(٣) أرهنها : جعلها رهنا .

وثابُوا إِلَى نشْرِ الْفُكاهَةِ بَعْد مَا طَوَوْها ؛ وَأبو زيد مُكبٌّ عَلَى إعمالِ يَدَيْهِ ، حَتَّى إِذَا اسْتَرْفَعَ مَا لَدَيْهِ ، قُلْتُ لَه : أطرِفْنا بغَرِيبَةٍ مِنْ غَرَائِبِ أسْمَارِكَ ، أوْ عَجِيبَةٍ مِنْ عَجَائِبِ أسْفَارِكَ . .

* * *

قوله : «عقيدتنا» ؛أى ما انعقدت عليه نيَّاتنا،ويقال : رميت عن القَوس ، ولا يقال : رميت بها ،إلاّ أن ترميَها من يدك . لا جرم ، بمعنى حقا .ولا بدّ ولا محالة . السَّبط : السهل . راج : تيسر . أذكى : أوقد . السِّراج : المصباح . تأملتُه : نظرته.ليهنئكم ، أى ليسرّكم . الوارد : القاصد . المغنم البارد : الهنىء الذى يُغنَم دون قتال ولا تعب . أفل : غاب . الشِّعرى : كوكب معروف ، وهما شعريان : العَبور والغُمَيصاء ، سَمَّوْها عَبوراً لأنهم يزعمون أنها عبرت المجرّة ، وسموا الأخرى الغُميصاء لأنها بكت على أختها حتى غمصت عينها . أى خفيت . استسرّ : غاب وخفى . النَّثرة : ثلاثة أنجم مجتمعة . تبلّج : ظهر وأضاء . النثر : ضد النظم ، يقول : إن غاب قمر السماء الذى يتحدّث بضوئه ، فهذا أبو زيد قمر الفصاحة قد طلع ، فجدّدوا حديثكم ودعوا النوم .

سَرتْ: مشت. حميّا المسرّة: شدة السرور ،والحميّا : حدّة الخمر وتسمّى الخمر الحميّا . السِّنَة : أخفّ من النوم . مآقيهم : عيونهم ، والمأق: طرَف العين من جهة الأنف . رفضوا : تركوا. الفكاهة:الحديث المظرّف ، وأصلها المزاح ،ومنه قولهم: لا تمازحنّ صبيًّا ولا تفاكهنّ أَمَة ، قال ابن الأنبارىّ : المعنى:لا تمازحنّ ،إلا أنه استسمج إعادة اللفظ فأتى بلفظ فى مثل معناه ، مخالف للفظه .وتفاكهنّ ، مشتق من الفكاهة ،وهى المُزاح ،وقال طرَفة :

وإنّ امرأ لم يَعْفُ يوماً فكاهةً ... لمنْ لم يُرِدْ سوءا بها لَجَهُولُ[1]

(١) ديوانه ١٢٠ .

ووصف أبو العيناء ابن أبي دواد ، فقال: له هزل يؤتم به، وجدّ يتقدم الجدّ، وبين ذلك فكاهة تستملح ، ودعابة تستظرف . ومزح ، مصادره ثلاثة : مَزْح ومُزَاح وممازحة. اليزيدي: المِزاح ، بالكسر لا غير. أبو عمرو: ما ذكره اليزيدي مصدر ما زحت مِزاحاً وممازحة .

قوله : «مكبّ» ، أي مائل الرأس . إعمال يديه: استعمالها بالأكل . واسترفع: أمر برفعه ، ويروى «استفرغ» ، أي أتمّ . أطرفنا، أي حدّثنا بطُرفة ، وهي الحديث المستملح، والطرْفة عند العرب : الشيء الحدَث الذي لم يكن عرف ، وجاء فلان بطرْفة وشيء طريف. وهو مشتقّ من الطريف والطارف ، وهما المال المستحدَث الذي جمعه الرجل واكتسبه. والتالد : ما ورثه عن الآباء ، قال الشاعر :

وأصبح مالي من طريفٍ وتالدٍ ... لغيري وكان المال بالأمس ماليا

أسمارك : جمع سمر ، وهو الحديث يُسْمَر عليه .

* * *

فقال : لَقَدْ بَلَوْتُ مِنَ الْعَجَائِبِ مَا لَمْ يَرَهُ الرَّاءونَ ، وَلاَ رَوَاهُ الرَّاوُون ؛ وَإِنَّ مِنْ أَعْجَبِهَا مَا عَايَنْتُهُ اللَّيْلَةَ قُبَيْلَ انْتِيَابِكُمْ ، وَمَصِيرِي إِلَى بَابِكُمْ ؛ فاسْتَخْبَرْنَاهُ عَنْ طُرْفَةِ مَرْآه ، فِي مَسْرَحِ مَسْرَاه ، فقال : إِنَّ مَرَامِيَ الْغُرْبَةِ ، لَفَظَتْنِي إِلَى هَذِهِ التُّرْبَةِ ، وَأَنَا ذُو مَجَاعَةٍ وَبُؤسَى ، وجِرَاب كَفُؤَادِ أُمِّ مُوسَى . فَنَهَضْتُ حِينَ سَجَا الدُّجَى ، عَلَى مَا بِي من الوَجَى ، لأَرْتَادَ مُضيفاً ، أَو أَقْتَادَ رَغِيفاً ، فَسَاقَنِي حادِي السَّغَبِ ، وَالقَضاءُ المَكْنِيُّ أَبا العَجَبِ ، إِلى أَن وَقَفْتُ على باب دارٍ ، فَقُلْتُ على بدارٍ :

* * *

قوله: «مالم يره الراءون»، أى الناظرون إليه، وقوله: «ولا رَوَاه الراوون» أى حفظه الحافظون. عاينته: شاهدته ورأيته بعينى. انتيابكم: قصدكم. مصيرى: رجوعى. مرآه: رؤيته. مسرح: حيث يسرح ويمشى. مسراه: سيره بالليل. مرامى: قواذف التربة: البلدة. مجاعة: جوع. بؤسى: ضرر. جراب: وعاء الزاد. كفؤاد أم موسى، أى فارغًا لقوله تعالى: ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغًا﴾(١).

[قصة موسى عليه السلام قبل مبعثه]

وسمِّىَ موسى لأنهم وجدوه بين ماء وشجر، وهو بالقبطية هو الماء، وشا الشجر، فعرّبت فجعلت الشين سيناً. وهو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، ولم تزل بنو إسرائيل من عهد يوسف عليه السلام تحت أيدى الفراعنة، وهم على بقايا من دين إبراهيم عليه السلام المشروع له وإسحاق ويعقوب ويوسف عليهم الصلاة والسلام، حتى كان فرعون الذى بعث موسى عليه السلام إليه، ولم يكن منهم فرعون أعتى على الله منه ولا أطول عمرا. وكان شديد الغِلْظة سيّئ الملكة. واسمه الوليد بن مصعب، وكان اتّخذ بنى إسرائيل خَوَلاً، فصِنْفٌ منهم يبنون، وصِنْفٌ يحرثون، ومن لا عمل له وظّف عليه الجزية، فرأى فى منامه أن ناراً أقبلت من المقدس، فأحرقت القِبْط وتركت بنى إسرائيل، فسأل عن رؤياه، فقيل له: يخرج من هذا البلد الذى جاء بنو إسرائيل منه رجل يكون على يديه هلاك مِصْر، فأمر بقتل كلّ مولود يولد فى بنى إسرائيل. فجمع القوابل وعهد إليهن بذلك، فذبح الوِلْدان وعذّب الحبالى، حتى يطرحن ما فى بطونهن، حتى كاد يفنيهم، فقيل له: إنما هم خَوَلُك، وإنك إن تُفْنِهم ينقطع النسل. فأمر بقتل الغلمان عاماً ويُستحيون عاما، فولد هارون فى السنة التى يستحيون فيها. وولد موسى فى السنة التى يقتلون فيها.

فلما وضعته أمه حَزِنت لشأنه، فأوحى الله إليها: أن أرضعيه، فإذا خفت

(١) سورة القصص ١٠

عليه فألقيه فى اليمّ ـ وهو النيل ـ ولا تخافى ولا تحزنى. فعملت تابوتا وجعلته فيه، وألقته فى اليمّ، وقالت لأخته: قصّيه، أى اقتفى أثره، فحمله الماء حتى أدخله بين أشجار تحت قصر فرعون، فخرج جوارى فرعون يغتسلن، فوجدن التابوت، فأدخلنه إلى آسية امرأة فرعون، وهى بنت مزاحم، إسرائيليّة، فكشفت عنه التابوت، فرأته. فرحمته وأخذته، وأخبرت به فرعون، فأراد أن يذبحه، وخشى أن يكون المولودَ الذى حُذِّرَ منه، فلم تزل به آسية حتى تركه لها، وذلك قوله تعالى: ﴿ فالْتَقَطَه آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكونَ لهم عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾[1]، فاللام من ﴿ ليكون ﴾ للعاقبة، ولم يكن لفرعون ولد، فاتّخذه له ولدا، فارتادوا له المرضعات، فلم يقبل ثدْىَ واحدة منهن، ولما غاب أمرُه عن أمه، كاد قلبها يطير وَجْداً عليه، فبعثت أخته كأنّها تلتمس رضاعه، فلما رأت أسفهم عليه حيث لا يُقبل على مرضعة ـ وذلك قوله تعالى. ﴿ وحَرَّمْنَا عَلَيْهِ المَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ـ قالت: هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم؟ فقالوا لها: دلّينا على ذلك، فذهبت فجاءت بأمه.

فلما رأته كادت لشدّة حبّها فيه، وفرحها به أن تقول: هو ابنى، وتفتضح، فعصمها الله من ذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿ وأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسى فارغا إنْ كادَتْ لتُبْدِى به لولا أن رَبَطْنا على قلبها ﴾[2]، فأعطته ثديها، فأخذ يرضعه. فربّته فى قصر فرعون، فلما تحرّك عرضته آسية على فِرْعون، فلما أخذه مدّ موسى يده إلى لحيته فنتفها، فقال فرعون: علىّ بالذبّاحين، فإنما هو هذا! فقالت آسية: قُرَّة عينٍ لى ولك، لا تقتلوه فإنه صبىّ لا يعقل، ودعت له بجمر وياقوت لتختبره، فطرح جبريل عليه السلام يده فى النار وأخذ قطعة منها، فوضعها موسى عليه السلام فى فمه، فأحرقته. فتركه فرعون، فكبر فى حجره. فلمّا ترعرع تبنّاه، فكان يركب مراكبه ويلبس ملابسه، ويُدعى ابن فرعون.

(١) سورة القصص ٨.
(٢) سورة القصص ١٢.
(٣) سورة القصص ١٠.

ثم إن موسى عليه السلام أخبر أن فرعون قد ركب ، فركب أثره ، فأدركه ببلد منف ، فدخلها وقد أُخْلِيَتْ لفرعون وليس فى طرقها أحد ، فرأى إسرائيليا مع قبطىّ يقتتلان ، فاستغاثه الإسرائيلىّ ، فوكز القبطىّ فقضى عليه ، فكان من قصته معهما ماقص الله تعالى فى كتابه ، حتى خرج خائفا يترقب إلى مدين .

وأما رجوعه منها إلى فرعون بأنه رسول الله إلى أن غرق فرعون فى البحر وجنوده ، فمذكور فى الثامنة عشرة .

* * *

قوله : « نهضت » ، أى مشيت . سجا الدجى : سكن بالظلام وغطّى كل شىء . الوجى : الحفا . أرتاد : أطلب . مضيفاً : منزلاً ، وأضافه : أنزله . وضافه : نزل به فهو ضيفُه ، أى النازل به . أقتاد : أقود . حادى السَّغَب : سائق الجوع .

* * *

حُيِّيتُمُ يا أَهْلَ هَذَا الْمَنْزِلِ ... وَعِشْتُمُ فى خَفْضِ عَيْشٍ خَضِلِ

مَا عِنْدَكُمْ لابْنِ سَبِيلٍ مُرْمِلٍ ... نِضْوِ سُرًى خابطِ لَيْلِ أَلْيَلِ

جوى الْحَشَى على الطَّوَى مُشْتَمِلِ ... مَاذَاقَ مُذْ يَوْمَانِ طَعْمَ المأْكَلِ

وَلا لَهُ فى أَرْضِكُمْ مِنْ مَوْئِلِ ... وقَدْ دَجَا جُنْحُ الظَّلامِ المسْبِلِ

وَهْوَ مِنَ الْحَيْرَةِ فى تَمَلْمُلِ ... فَهَلْ بِهَذَا الرَّبْعِ عَذْبُ الْمَنْهَلِ

يَقولُ لى : أَلْقِ عَصَاكَ وادْخُلِ ... وَأَبْشِرْ بِبُشْرٍ وَقِرَى مُعَجَّلِ !

* * *

حُيِّيتم : طابت حياتُكم ، والتحيّة البقاء . خفض : لين وخفض عيشُه خفضاً ، إذا أخصب . خضل : ناعم ، وخضِل : الشىء يخضل خضلاً : ابتلّ . ابن سبيل : خاطر طريق ، وهو الغريب ، وسُمِّى الغريب ابنَ السَّبيل لأنه إذا ظهر على قوم لايعرفونه لم يُعزف له نسب إلا السبيل الذى جاء منه . ومرمِل : لا زاد له ، وأرمل القوم : فنى زادهم

ومن أبيات اللغز فى ابن السبيل :

ونحنُ ابن مَنْ لا ينكِرُ النَّاس فضلَه ... وليس له فى الناس من طالبٍ وِتْرَا
فإنْ تحفَظوا فينا أبانا فحقَّنا ... رَعَيْتُمْ وإلاّ أُوقِدَتْ نارُكم شَرَّا

أى سبيتم فى كل مكان ، كما قال الآخر :

وأنْت الذى شيَّبتَنِى قبل شِيبَتِى ... وأوقَدْت لى ناراً بكلّ مكانِ

ومنها أيضاً :

وأحيانا يكون كبير سنٍّ ... وأحياناً يكونُ من الشَّبابِ
ومنسوب إلى مَنْ لم يلده ... كذاك الله أنْزَلَ فى الكِتَابِ

قوله:« نضو سُرَى»، أى هزيل مِنْ مشى اللَّيْل فى الأسفار . وابط ليل : الذى يمشى فيه على غير هداية . ألْيَل : شديد السواد . جوى الحشى : فاسد الجوف من الجوع ، وهو الطوى . مشتمل : منضمّ ، أى قد انضمّ جوفه على الجوع ، فسدت أحشاؤه. موئل: ملجأ ، من وألت إلى كذا ، أى لجأت . دجا: ألبس . جنح : سواد : المسبِل. المطبق. تململ : تقلّب وتوجّع . والرّبع :المنزل، والمنهل : موضع الماء .

ويقال: ألقى عَصاه، إذا تَرك السَّير وأقام ، وروى الأصمعىّ عن بعض البصريين أنه قال: سُمِّيت العصاعصاً لأن اليد والأصابع تشتمل عليها ، وهو من قول العرب: عصوتُ القومَ إذا جمعتَهم على خير أو شرّ ، ويقال : عُصِىَ بالسيفُ يُعْصَى إذا ضُرِب به كما يضرب بالعصا . بشر : طلاقة وجه .

* * *

قَالَ : فَبَرَزَ إِلَيَّ جَوْذر ، عَلَيْهِ شوذَر ، وقال :

وَحُرْمَةِ الشَّيْخِ الَّذِي سَنَّ الْقِرَى وأَسَّسَ المحجوجَ فى أُمِّ الْقُرَى
مَا عِنْدَنَا لِطَارِقٍ إِذَا عَرَى سِوَى الْحَدِيثِ والْمُنَاخ فِي الذَّرَا
* فَمَا تَرَى فِيمَا ذَكَرْتُ مَا تَرَى *

* * *

برز : خرج . جؤذر : ظبى ، وأصله ولد الغزالة . الشوذر : ثوب قصير .

[إبراهيم عليه السلام]

والشيخ الذى سنَّ القِرى ، هو إبراهيم عليه السلام ، واختصّه بلقب الشيخ لأنه أوّل مَنْ شاب ، ولما رأى الشيب ، قال : يارب ، ما هذا ؟ فأوحى الله إليه ، يا إبراهيم ، هذا وقار ، فقال : يارب زدنى وقاراً . وشاب وهو ابن مائة وخمسين سنة ، وذلك أنه لمّا ولدت سارة إسحاق ، قال الكنعانيون : ألا تعجبون لهذا الشيخ والعجوز وجَدَا غلاماً ، فتبنّياه ! فصوّر الله إسْحَاق على صورة إبراهيم عليهما السلام ، فلم يفصِلْ بينهما ، فوشم الله إبراهيم بالشيب .

قوله : « سنّ » : ابتدأ ، وجَعله سُنَّة ، وهو أول مَنْ ضَيَّف الضيف ، وأطعم المساكين ، وقصّ شاربه ، وقلّم أظافره واستحدّ واستاك ، وفرّق شعره ، ومضمض واستنثر ، واستنجى بالماء . وأسَّسَ المحجوج ، أى بنى أساس البيت الحرام . وأمّ القرى : مكّة . والطارق : الآتى بالليل . والمناخ : موضع البروك . يقْرِى : يُضِيف . الكرى : النوم . برى أعظمه ، أى أزال اللحم عنها . انبرى : اعترض .

[مما قيل فى القِرى والأضياف]

وقال حبيب فى أنّ أوّل من قِرِى الضيف إبراهيم عليه السلام :

للجودِ سهمٌ فى المكارم والتّقَى لا ربّه المكدِى ولا المسهومُ[1]

(١) ديوانه ٣٠٠ ، والمكدى : الفقير ، والمسهوم : الضامر .

وبيان ذلك أن أوّل من قرى وحبـــا خليلُ الله إبراهيمُ

وقال أبو بحر صفوان بن إدريس فى فتى اسمه إبراهيم ، وأبدع ما شاء حيث قال :

أَسَمِيَّ من سنّ القِرى رفقاً بمن يَفنى عليك صبابة وغَرَامَـــا
أنا ضيف حسنِك فاصْطَنِعْنِي إنه ضيفُ الهوى يستوجب الإكْرَامَا
لمّا نظرت نجوم خِيلانٍ بَدَتْ فى صحن وجْنتِك استفدْت مُقَامَا
أفنيتَ جسم الصبِّ شوقاً مثلَما أفْنَى سميُّـك قبلك الأصْنَامَا
يا زهرةً سكنتْ فؤادى غَضَّـةً إنّى تبـــوّأت اللّهيب كمَامَا
حتى كأنّ الحبّ قال لأضلُعِي : يا نارُ كُنْ برداً له وسَلَامَا

وقال أبو بكر بن ميمون فيما يتعلق بهذه النار :

أبَا قاسم والهوى جَنّـــة وإنىَ من حرِّها لم أُفِقْ
تقَحَّمْتُ جاحِمَ نارِ الحشَى وخضتُ بحار سوادالحدَقْ
أكُنْتَ الخليل وكنتَ الكليم أمنتُ الجوى وأمنتُ الغَرَقْ!

انظر إلى الأضياف الرابعة والأربعين .

* * *

فَقُلْتُ : مَا أَصْنَعُ بِمَنْزِلِ قَفْرٍ ، وَمَنْزِلِ حِلْفِ فَقْرٍ ! وَلَـكِنْ يَافتى ، ما اسْمُكَ ، فَقَدْ فَتَنَنِي فَهْمُكَ؟فَقَالَ :اسْمِي زيْد ، وَمَنْشِئِي فَيْد ، ووردت هَذِهِ الْمَدَرَةَ أَمْسِ ، مَعَ أَخْوَالِي مِنْ بنِي عَبْسٍ .

* * *

قوله :« بمنزل قفر »؛ كأن هذا المنزل هو الذى وصفه الآخر حيث يقول :

ليس إغلاق لبابى أنّ لِي ... فيه ما أخشى عليه السَّرَقَا
إنما أغلقته كى لا يرى ... سُوءَ حالِي من يمرّ الطُّرُقَا
منزلٌ أوطِنهُ الفقرُ فلو ... يدخل السارق فيه سُرِقَا

[نبذ وحكايات فى البؤس والحرمان]

إنما أخذ الحريرى هذا المعنى من قصة يزيد المدنى ، وكان من أهل المَلَح ، فاستضافه أعرابىّ ، فقال : ماعندنا إلا الأسودان ، فقال الأعرابىّ : خير كثير ، فقال : لعلك تظنّهما التمر والماء ! والله ما هما إلا الليل والحرّة ، فلم يكن ليزيد دارٌ إلا الحرّة ـ وهى أرض سوداء فيها حجارة سود ، وهى مقبرة المدينة ـ والقبور المجَصّصة تكون بالليل موحشة ، فما ظنك بقبور سود فى أرض سوداء فى ظلمة الليل ! كيف حال من يكون هذا قِراه ! فبهذا البلاء أعرض يزيد عن ضيافة الأعرابىّ .

ونحو هذا من أقوال المازحين قول أبى الشمقمق ـ ويروى عن وهب عابد قرطبة :

برزتُ من المنازل والقِبَاب ... فلم يعسُرْ على أحدٍ حجابِي
فمنزلىَ الفضاء وسقفُ بيتى ... سماء الله أو قِطَعُ السحابِ
وإنّى لم أجد مصراع بيتٍ ... يكون من السّحاب إلى التراب
ولا انشقّ الثرى عن عود نحت ... أؤمّل أن أشدّ به ثيابى
ولا خِفْت الإباقَ على عبيدى ... ولا خفتُ الهلاك على دَوابِى
وفى ذا راحةٌ وفراغ بال ... فدأب الدهر ذا أبداً ودابى

وقال آخر :

ولمّا التمستُ الرزق فانجذّ حبلُه ... فلم يَصْفُ لى من بحره العذب مَشْرَب
خطبتُ إلَى الإعدام إحدى بناتِه[1] ... فزوّجَنيها الفقر إذ جئت أخطبُ
فأولدتُها الحرْف الشقّىّ فمالُه ... على الأرض غيرى والدٌ حين يُنْسَبُ
فلوّتهت فى البيداء والليل مسبلٌ ... علىّ جناحيْه لما لاح كوكبُ
ولو خفت شرًّا فاستترت بظلِّه[2] ... لأقبل ضوء الشمس من حيث تغربُ
ولو جادَ إنسانٌ علىّ بدرهم ... لرحت إلى رحْلى وفى الكف عَقْرَبُ
ولو يُمطَر الناسُ الدنانيرَ لم يكنْ ... بشىء سوى الحصباء رأسى يُحْصَبُ
وإن يقترف ذنباً ببرقَة مذنبٌ ... فإنّ برأسى ذلكَ الذنب يُعْصَبُ
وإن أر خيراً فى الأنام فنازحٌ ... وإن أر شرًّا فهو منّى مقرّبُ
أمامى من الحِرْمَانِ جيش عَرَمْرَمٌ ... ومنه ورائى جَحفل حين أركبُ

وقال آخر :

لو ركبتُ البحار صارت أُجاجا ... لا ترى فى مُتونها أمواجا
ولوَ أنّى وضعت ياقوتة حمـ ... ـراء فى راحتى لصارتْ زُجَاجا
ولو أنّى وردت عَذْباً فُراتا ... عَادَ لا شكّ فيه ملحاً أُجَاجا

وقال آخر :

لو وردت البحار أطلب ماء ... جفّ قبل الوُرود ماء البحارِ
أو مَسَسْتُ العود النّضير بكفّى ... لذوَى بعد بهجة واخضرارِ
أو رمى باسمى النجوم الدّرارى ... لانزوَى ضوءها عن الأبصار
ولو أنى بعت القناديل يَوْمًا ... أدغِمَ اللّيل فى ضياء النهار

(١) ط «من الإعدام» ، وما أثبته من ا ، ب .
(٢) ط : «بظلمة» .

وقال شواش :

كسدت شَواشينا وقَلَّ معاشُنا فسعودُنا مقرونة بنحـــوسِ
فكأنما قُطِعت رءوس الناس أَوْ خُلِـقوا لشقوتنا بغير رءوسِ

قيل لأبى الشمقمق : أبْشِرْ فإنّا روينا فى الحديث : « العارون فى الدنيا هم الكاسون يوم القيامة » ، فأنشأ يقول :

أنا فى حالٍ تعالى الله ربى أىّ حـــالِ
ليس لى شىء إذا قِـــيلَ لِمَنْ ذا ؟ قلت ذَا لِى
فأراضِى الله فرشِى والسَّمٰوات ظلاَلِى
ولقد أفلستُ حتّى حلّ أكلى لعيالِى
من رأى شيئاً محالا فأنا عين المحَالِ
لو بَقِى فى الناس حُرٌّ لم أكن فى مثل حَالِى

قوله : «منزل» ، أى مضيف . حلف : صاحب . منشئ : موضع الذى نشأت فيه .

[ذكر مدينة فيد]

وفَيْد بلد مشهور ، فى نصف المسافة التى بين مكة وبغداد ، وفيها عين ماء ، وينزلها عمّال طريق مكة وأهلها من طيّىء ، وهم فى سَفْح جبلهم المعروف بسلمى ، وقد ذكرها زهير فى قوله :

ثم استمرُّوا وقالوا إنّ مشرَبَكُمْ ماء بشرقىّ سلمى فَيْدُ أوركُكُ[1]

قال الزجاجىّ : سمِّيت بفيد بن حام ، وهو أوّل مَنْ نزلها ، قال : ويقول أهل العراق : هى من قولهم : فاد الرجل يفيد فَيْداً إذا مات ، أو من قولهم : استفاد فائدة ، وقلّما يقولون : أفاد فائدة ، والفيد أيضاً نور الزّعفران . قال شيخنا ابن جبير[2]

(١) ديوانه ١٦٧ ، وركك : اسم ماء بعينه ، وفى ط : « ركل » تحريف .
(٢) ط : « جرير » ، تصحيف .

رضى الله عنه : إنه خرج من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم بضحْوة يوم السبت الثامن من المحرم سنة سبع وتسعين مع أمير الحاج ، وصبّحوا فيداً يوم الأحد فى اليوم الرابع عشر من خروجهم . ثم وصفها فقال : هى مِصْرٌ كبير ، منفرج فى بسيط من الأرض ، يمتدّ حوله رَبَضٌ ، يطيف به سور عتيق . وهو معمور بسكان من الأعراب يتعيّشون[1] من الحجّاج فى التّجارات والمبايعات وغير ذلك من المرافق ، وفيها يترك الحجاج بعض أزوادهم إعداداً للإرمال[2] من الزاد عند انصرافهم يتركونها عند معارفهم بها ، فإذا رجعوا أخذوا أزوادهم ، ووهبوا لمن أودعوها عندهم شيئا من ذلك .

وهى نصف الطريق من بغداد إلى مكّة أو أقلّ يسيرًا ، ومنها إلى الكوفة اثنا عشر يوما فى طريق سهلة . ودخلها أمير الحاجّ على تعبية وأهبة إرهابا للمجتمعين بها من الأعراب لئلاّ يداخلهم الطمع فى الحاجّ ، لكنّهم لا يجدون إليهم سبيلا والحمد لله . والمياه كثيرة فى آبارها ، تمدّها عيون تحت الأرض ، وامتلأت أيدى الحجاج القادمين من أغنام العرب بالمبايعة ، فلم يبق خَيْمة ولا ظلالة إلا وإلى جانبها كَبْش أو كبشان ، بحسب الوجد ، فعمّ جميع المحلّة الغنم واللبن والسمن والعسل ، فأكلوا واحتملوا ، وكان ذلك اليوم عيداً للركب .

قال : وبهذه المحلّة العراقية ، وما انضاف إليها من الخُراسانية والموصليّة وسائر جهات الآفاق ينزل من صحبة أمير الحاج جمعٌ لا يحصى عددَهم إلا الله تعالى ، يغصّ بهم البَسيط الأفيح ، ويضيق بهم الملهم الضحضح ، فترى الأرض تميد بهم مَيْداً ، وتموج بجمعهم موجًا ، فتصير بهم بحراً طامِيَ العُباب ، ماؤه السراب ، وسفينه الركاب ، وشراعه الظّلال المرفوعة والقباب ، ويسير سير السحاب ، متداخلا بعضها على بعض ، فتعاين تزاحما فى البراح المنفسح يهولُ ويُروع ، واصطكاكا

(١) رحلة ابن جبير : « يلتعشون » .
(٢) أرمل القوم : نفد زادهم .

لمبيع التجارات فيه ، فبعضها ببعض متروع ؛ فمن لم يشاهد هذا السفر العراق لم يشاهدْ عجباً يتحدّث به ، ويتحف السامع بغرائبه ، والقدرة والقوّة لله وحده .

وحسبُك أنَّ النازل فى منزل من هذه المحلّة مَتَى خرج لبعض حاجاته ، ولم يكن له دلالة على موضعه ضلّ وتَاهَ ، وعاد منشوداً بجملة الضوالّ ، وربما اضطر به الحال إلى الوصول لمضرب الأمير ورفع المسألة إليه ، فيأمر أحد المنشدين بما أعدّ لذلك ، فيردفه خَلْفه على جمل ، ويطوف به المحلّة مناديا باسم جماله وبلده ، إلى أن يؤدّيه إلى رفقته .

وعجائب هذه المحلّة كثيرة ، ولأهلها من اليَسار ما يغنيهم على ماهم بسبيله .(١)

وما ذكرنا أمر هذه المحلّة إلا ليستدلّ على أن فيها بلداً فى غاية القوّة والعمارة ، حيث أُمِدّ هذا الجمع الكثير والجم الغفير بما تقدم من أنواع الأرزاق ، وإن قبائل طيىء متوفرة بحيث تطلع إلى الغارة على مثل هذه المحلّة . والملك لله وحده مضى الجميع بعد كمال العدّة .

قوله : «وردت» ، أى أتيت . المَدَرة : البلد . عبْس : قبيلة .

* * *

فَقُلْتُ لَهُ : زِدْنِى إيضاحًا ، عشْتَ وَنُعِشْتَ ، فقالَ : أَخْبَرَتْنِى أُمِّى بَرّةُ ، وَهِىَ كَاسْمِهَا بَرَّة ؛ أَنَّهَا نَكَحَتْ عَامَ الْغَارَة بماوَانَ ، رَجُلاً مِنْ سَرَاةِ سَرُوجَ أَوْغَسَّانَ ، فَلَمَّا آنَسَ مِنْهَا الإِثْقَالَ - وَكَانَ بَاقِعَةً فِيما يُقَالَ - ظَعَنَ عَنْها سِرًّا ، وَهَلُمَّ جَرًّا ، فما يُعْرَفُ : أَحَىٌّ هُوَ فَيُتَوَقَّعُ ، أَمْ أُودِعَ اللَّحْدَ الْبَلْقَعَ .

قال أبو زيد : فَعَلِمْتُ بِصِفَةِ الْعَلاَمَاتِ أَنَّهُ وَلَدِى ، وَصَدَقَنِى

(١) انظر رحلة ابن جبير ١٨٣ ، ١٨٤ .

عن التَّعرُّفِ إليْهِ صَفْرُ يَدِى، فَفَصَلْتُ عَنْهُ بِكَبِدٍ مَرْضوضةٍ، وَدُمُوعٍ مُفْضُوضةٍ . فَهَلْ سَمِعْتُمْ يا أُولى الْأَلْبَابِ ، بأَعْجَبَ مِنْ هَذَا العُجاب! فَقُلْنَا : لاَ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتاب ، فقال : أَثبتوها فى عجائب الاتّفاقِ ، وَخَلِّدُوها بُطُونَ الأوراقِ ، فَمَا سُيِّرَ مِثْلُهَا فى الآفاقِ . فأَحضَرْنَا لدَّوَاةَ وَأَساوِدَهَا ، وَرَقَشْنَا الحِكايةَ على ماسَرَدَها .

* * *

إيضاحاً : بياناً . نُعِشت : جُبرت. وبَرّة الأول اسمها والثانى صفتها ، يريد أنها مكرّمة كثيرة البِرّ . نكحت: تزوّجت . عام الغارة ، أى عام أغار عليهم عدوّهم . ماوان : بلدة . سراة : سادة . آنس : أبصر . والإمتقال : الامتلاء بالولد . باقعة : داهية ، ويقال : إنه الذى جال بقاع الأرض وعرف خيرَها وشرها .

قال ابن الأنبارىّ رحمه الله : فلان باقعة ، أى داهية حذِر محتال حاذق ، والباقعة عند العرب : الطائر الحذِر المحتال الذى يشرب الماء من المَباقع[1] ، ولا يردُ المشارع والمياه المحصورة خوفاً من أن يُحتال عليه فيُصطاد ، ثم شبّه به كل حِذرٍ محتال . هلم جرًّا ، معناه إلى الآن ، قال ابن الأنبارىّ : هلمّ جرًّا ، سيروا على هَيْنتكم ، أى تثبّتوا على سيركم ، ولا تجهدوا أنفسكم ولا تشقّوا عليها ، أخذ من الجرّ فى السوق ، وهو أن تترك الغنم والبقر ترعى فى السير ، وينتصب «جرًّا» فى قول الكوفيين على المصدر ، لأن فى «هلُمّ» معنى «جَرّ» ، وفى قول البصريين: هو مصدر فى موضع الحال تقديره «هلم جارّين» أى مستتبتين، قياساً على: جاء عبدالله مشيا ، وأقبل ركضا ، وجاء وأقبل عند الكوفيين بمعنى مشى وركض . وقال بعضهم : ينصب على التمييز . يُتوقّع : يُنتظر . أودِع : أدخِل . اللَّحْدالتُّلْقع :

(١) المباقع : الأمكنة يستق منها الماء .

اللحد الخالى . صدفنى : أمالنى . التعرّف : أن يعرّفه أنه أبوه . صفَر يدى : فراغها من الدراهم . فصلت : زلت . مرضوضة : مدقوقة مكسورة . مفضوضة : مفترقة . أولى الألباب : أهل العقول . العُجاب : مبالغة فى العجَب .

خلدوها ، أى أثبتوها . الآفاق : البلدان وجهات الأرض جميعها . أساودها : أقلامها . رقشنا : كتبنا . على ما سردها ، أى كما حكاها وتكلّم بها .

* * *

ثم اسْتَبْطَنَّاه عَنْ مُرْتآه ، فى استضمام فَتَاهُ ، فقال : إذَا ثَقُلَ رُدْنِى ، خَفَّ عَلَىَّ أن أَكْفُلَ ابْنِى ؛ فقُلنا : إنْ كَان يكْفِيكَ نِصَابُ مِنَ المالِ ، أَلَّفْنَاهُ لكَ فى الحَالِ ؛ فقالَ : وَكَيفَ لاَ يُقْنِعُنِى نِصابٌ ، وَهَلْ يَحتَقِرُ قَدْرَهُ إلاَّ مُصَابٌ !

قال الراوى : فالتزمَ مِنهُ كلٌّ مِنَّا قِسْطَاً ، وَكتَبَ لهُ به قِطَّاً ، فشكرَ عِند ذَلِك الصُّنْعَ ، وَاسْتَنفَدَ فى الثَّنَاءِ الْوُسْعَ ، حَتى إنَّنا اسْتَطَلْنَا الْقَوْلَ ، وَاسْتَقْلَلْنَا الطَّوْلَ . ثمَّ إنَّه نَشَرَ مِنْ وَشْيِ السَّمَرِ ، مَاأَزْرَى بالحِبَرِ ، إلَى أَنْ أَظلَّ التَّنْوِيرُ ، وَجَشَرَ الصُّبْحُ المُنِيرُ ، فَقَضَّيْنَاهَا لَيْلَةَ غَابَتْ شَوَائبُها ، إلى أن شابت ذوائبُها ، وَكَمَلَ سُعُودُهَا ، إلَى أَنِ انْفطَرَ عُودهَا .

* * *

استبطنّاه : سألناه وطلبنا منه معرفة باطنه . مُرْتآه : رأيه وغرضه . رُدْنى : كنّى . أكفل : أضمّ . نصاب : عشرون دينارا . ألّفناه : جمعناه . يقنعنى : يكفينى . مصاب : مجنون . قوله : «قسطا» ، أى نصيبا . قِطًّا : كتابا . الصنع : الفعل الجميل . استنفد : استتمّ . الوسع : الطاقة ، ووُسْع الرجل قدر ما يجد من مال أو كلام أو غير ذلك ، وهو من السعة ، أى أثنى غاية ما يمكنه من الثناء . استطلنا : استكثرنا ووجدناه كثيراً طويلا ، والطّوْل : الإنعام والفضل ، أى رأينا ما أنعمنا به عليه قليلا . والوَشْى : ثياب مرقومة بألوان شتّى من الحرير . والحِبَر : ثياب فيها خطوط ورقوم مختلفة ، والحِبَر تصنع باليمن ، فشبّه حسن حديثه بالوشى ، وخصّ الحِبَر لحسن فنونه . وقال ابن الزقّاق ـ وكأنه وصف الليلة والعجاب الذى سأمرهم به أبو زيد ، وزاد عليه الشجاعة :

لِلّه ليلتُنَا الّتى استجدى بهـــا ... فَلَقُ الصّباح لِسُدْفَةِ الإظلامِ (١)
طرأت علىّ مع النجوم بأنجم ... من فتيةٍ بيضِ الوجوه كِرَام
إن حوربوا فزِعوا إلى بيض الظُّبَا ... أو خوطبوا فزِعُوا إلى الأقلامِ
فترى البلاغة إن نظرت إليْهِمُ ... والبأس بين يراعةٍ وحُسَامِ

جتر : طلع . قضيناها : أتممناها . شوائبها : ما ينكدها ويكدرها . الذوائب : الشعر الطويل الأسود ، وأراد به ظلام الليل ، وجعل فيه بياض الصبح بمنزلة الشيب فى سواد الشعر ، قال ابن دريد :

إمّا تَرَىْ رأسِيَ حاكَى لونُه ... طُرّةَ صبحٍ تحت أذيال الدُّجَى (٢)

---

(١) ديوانه ٢٩٨ .

(٢) من المقصورة ص ١١٧

انفطر : انشقّ وطلع . عودها : بياض صبحها ، ويقال : انفطر القضيب ، إذا بدَا نبات ورقه ، وقال امرؤ القيس :

* كخُرعوبة البانة المنفطر[1] *

* * *

وَلَمَّا ذَرَّ قَرْنُ الْغَزَالَةِ ، طَمَرَ طُمورَ الْغَزالَةِ ، وَقالَ : انْهَضْ بِنَا لِنَقْبِضَ الصِّلَاتِ ، وَنَسْتَنِضَّ الإِحَالاتِ ، فَقَدِ اسْتَطارَتْ صُدُوعُ كَبِدِي ، مِنَ الْحَنِينِ إِلَى وَلَدِي . فَوَصَلْتُ جَنَاحَهُ ، حَتَّى سَنَّيْتُ نجَاحَهُ ؛ فَحِينَ أَحْرَزَ الْعَيْنَ فِي صُرَّتِهِ ، بَرَقَتْ أَسارِيرُ مَسَرَّتِهِ ، وَقَالَ لِي : جُزِيتَ خَيْراً عَنْ خُطا قَدَمَيْكَ ، وَاللهُ خَلِيفَتِي عَلَيْكَ ! فَقُلْتُ : أُرِيدُ أَنْ أَتَّبِعَكَ لِأُشَاهِدَ وَلَدَكَ النَّجِيبَ ، وَأُنَافِثَهُ لِكَيْ يَجِيبَ .

* ° *

قرن الغزالة : شعاعها وحاجبها ، والغزالة من أسماء الشمس ، وأسماؤها كثيرة ؛ ذكرها يعقوب وغيره ، وذكر منها عشرة خمسة بالهاء ، وهى : الغزالة ، والجارية ، والجَوْنة ، ومَهاة ، والإلاهة . وخمسة بغير الهاء وهى : الشمس ، والسّراج ، والضِّحّ ، وذُكاء ، وبوح[2] .

طمر : وثب . الغزالة : الظبية . انهض أى قم . الصِّلات : العطايا . نستنضّ : نستحضر . والنَّاضّ : المال الحاضر . والإحالات : الديون التى وعدوه بها . استطارت : توسعت وانتشرت . صُدوع : شقوق . والحنين : الشوق والرحمة . وصلتُ جناحه ، أى مشيت معه ويدى فى يده ، وجناح الرجل : يده . سنّيت :

(١) ديوانه ٥٧ ، وصدره :

* بَرَهْرَهَةٌ رُؤْدَةٌ رَخْصَةٌ *

(٢) مبادئ اللغة العربية ٣ ، وذكر من أسمائها أيضا براح والشرق .

يسّرت . نجاحه : قضاء حاجته . أحرز العين : حصّل المال . وصُرّته : خرقة دراهمه . برقت : لمعت . أسارير : طرق الوجه ، ومنه الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نخرج تبرق أسارير وجهه » ، ويقال لها الأسرّة ؛ ويقال لخطوط الكف : الأسرّة ، وقد جمعهما التّهامى فى لفظ واحد فى قوله :

يُبدى أسِرَّةَ وجهِهِ ويمينِهِ فى ساعة الإعسارِ والإيسارِ

مسرّته : سروره ، أراد : انطلق وجهه سروراً بالمال . خطا : مشى . والنجيب : الجيّد العقل الكريم الأصل . قوله : «أنانئه» ، أى أكله .

* * *

فنظرَ إِلَيَّ نظرَةَ الخَادِعِ إِلى المَخْدُوعِ وَضَحِكَ حَتَّى تَغَرْغَرَتْ مُقْلَتَاهُ بالدُّمُوعِ ، وَأَنْشَدَ :

يَا مَنْ تَظَنَّى السَّرَابَ مَاءً لَمَّا رَوَيتُ الَّذِى رَوَيتُ
مَاخِلْتُ أن يَستَسِرَّ مَكْرِى وَأَنْ يُخِيلَ الَّذِى عَنَيْتُ
وَاللهِ مَا بَرَّةٌ بِعُرْسِى وَلاَ لِجَ ابنٌ به اكتنيتُ
وَإِنَّمَا لِى فنونُ سِحْرٍ أَبْدَعْتُ فِيهَا وَمَا اقْتَدَيتُ
لَمْ يَحْكِهَا الأَصْمَعِىّ فيما حَكَى ، وَلاَ حاكها الكميتُ
تَخِذْتُهَا وُصْلَةً إِلى ما تَجْنِيهِ كَفِّى مَتَى اشْتَهَيْتُ
وَلَوْ تَعَافيتُهَا لَحَالتْ حَالِى ، وَلَمْ أَحْوِ مَاحَوَيتُ

فَمَهِّدِ الْعُذْرَ أَوْ فسامِحْ إِنْ كنتُ أَجْرَمْتُ أَوْ جَنَيْتُ
ثمّ إنَّه وَدَّعَنِي وَمَضَى ، وَأَوْدَعَ قلْبِي جَمْرَ الْغَضَى.

* * *

تغرغرت : امتلأت . تظنّى : حسب . حلت : حسبت . يستسرّ : يخفى . مكرى : خداعى . يُخيل : يلبِّس ويشبّه . عُرسى : زوجتى . فنون : أنواع . أبدعت فيها : أحدثتها ولم أقتد بغيرى فيها . يحكيها : يحدّث بها . حاكها : نسجها وقال مثلها. الأصمعىّ مذكور فى المقامة الأربعين .

[ذكر الكميت وبعض أخباره وشعره]

وأما الكميت الشاعر ، فهو ابن زيد الأسدىّ ، وهو شاعر مجيد مكثر جدًّا ، وديوان شعره مستعمَل مشهور؛ ولمّا قال قصائدَه الهاشميّات قصَدَ البَصْرَة، فأتى الفرزدقَ فقال : يا أبا فِراس ، أنا ابن أخيك، فقال : ومَنْ أنت ؟ فانتسبَ له، قال : صدقتَ ، وما حاجتك ؟ قال : أنت شيخ مُضر وشاعرُها ، وأحببت أن أعرِض عليك ما قلت ، فإن كان حسناً أمرتَنى بإذاعته ، وإن كان غير ذلك أمرتنى بستره ؛ قال : يابن أخى ، أحسبُ شعرَك على قدر عقلك ، فقل راشداً، فأنشده :

طربتُ وماشوقاً إلى البيضِ أطرَبُ ولا لعباً مِنِّى وذو الشَّيْب يلعبُ!

قال : بلى ، فالعب ، فأنشده :

ولم يُلهِنى دارٌ ولا رسمُ منزلٍ ولم يتطرَّبْنِي بَنَانٌ مُخَضَّبُ

قال : مايتطرّبك إذاً ؟ فقال :

لا أنا ممّن يزجرُ الطير همّهُ أصاح غرابٌ أم تعرّض ثعلبُ

قال : أنت ممّن ؟ ويحك ! وإلى من تسمو ؟ قال :

ولا السانحاتُ البارحاتُ عشيّةً أمرّ صحيح القَرْن أمْ مَرّ أعْضَبُ

قال : أمّا هذا فقد أحسنت فيه ، قال :

ولـكنْ إلى أهلِ الفضائل والنُّهَى وخير بنى حـوّاء والخير يُطلب

قال : فمَنْ هم ويحك ! فقال :

إلى النَّفرِ البيضِ الّذين بحبِّهِمْ إلى الله فيما نابنى أتقرَّبُ

فقال : أرِحْنى ويحك ! مَن هؤلاء ؟ فقال :

بنى هاشمٍ رهطِ النّبيِّ فإنّنى بهمْ ولهمْ أرضَى مراراً وأَغْضَبُ

فقال : لله درّك يا بُنىّ ! فقد أصبتَ وأحسنتَ ، إذ عدَلْتَ عن الزَّعانِفِ والأوباش ، إذًا لا يُصرِد[1] سهمُك ، ولا يثلب قولك . ثم مَرّ فيها ، فقال : أظهر وأشهر ، فأنت أشعر من مضى ، وأشعر مَنْ بقى[2] .

فحينئذ قدم المدينة ، فأتى عبدَالله بن الحسين ، فأنشده ، فقال : يا أبا المستهلّ ، إنّ لى ضيعةً أعطِيتُ فيها أربعة آلاف دينار وهذا كتابُها ، وقد أشهدت لك بها شهوداً ، فقال : بأبى أنت وأمى ! كنت أقول الشعر لغيركم أريد به الدنيا والمال ، ولا والله ما قلتُ فيكم شيئاً إلا لله ، وما كنت لآخذ فى شىء جعلته لله ثمناً . فلما أبى عليه أخذ مئزره ، فدفعه إلى أربعة غلمان ، فجعل يدور به دورَ بنى هاشم ، ويقول : هذا الكميت ، قال فيكم الشعر حين صمت الناس عن فضلكم ، وعرَّض دمه لبنى أمّية ، فأثيبوه بما قدرتُمْ . فاجتمع له من حُلَى النساء ومن الدنانير والدراهم ما قيمته مائة ألف درهم ، فجاء بها إلى الكميت ، وقال : يا أبا المستهلّ

---

(١) أصرد السهم : أخطأ .

(٢) انظر الاغانى ١٥ : ١٢٠ ، ١٢١

أتيناك بجهد المقلّ ، ونحن فى دولة عدوّنا ، فاستعن بهذا على دهرك ، فقال : بأبى أنت وأمى ، قد أكثرتم وأطنبتم ، وما أردت بمدحى إيّاكم إلا الله ، فارددْه إلى أهله . فجهد به بكل حيلة ، فأبى،فقال : أما إذا أبيت أن تقبل ، فإن رأيت أن تقول شعرًا تغضب به بين النزاريّة واليمنيّة لعل فتنةً تحدث ، فنخرج بين أضغانها ، فقال قصيدته التى أولها :

ألا حُيِّيتِ عَنَّا يا مَدِينا وهل بأسٌ بقولِ مسلّمينا![1]

فعرّض فيها ، وصاح باليمن فيما كان من أمر الحبشة وغيرهم؛ مثل قوله :

لنا قمر السماء وكلّ نجمٍ تُشيرإليه أيدى المهتدِينا[2]

وماضربتْ هجانَ بنى نزارٍ هوائجُ من فحول الأعجمينا

وماحملوا الحمير على عتاقٍ مضمّرةٍ فيُلفَوا مُنْلغِينا

ومشت فى العرب ، فافتخرت نزار على اليمن واليمن على نزار ، وثارت العصبية فى البادية والحاضرة ،وتحزّب الناس ، فتعصّب مروان بن محمد لقومه من نزار على اليمن ، فانحرفت عنه إلى الدعوة العباسية وكان الكميت سبب ذلك .

وكان لامتداحه بنى هاشم وتعريضه ببنى أمية ، يطلبه خلفاء بنى أميّة ، فهرب منهم عشرين سنة ، فجدّ هشام بن عبدالملك فى طلبه ولم يجده ، ولم يستقرّ الكميت قرار من خوفه . وكان لمسلمة بن عبد الملك حاجة عند هشام يقضيها له ، لايردّه فيها ، فخرج مَسْلمة لبعض صيوده ، فأتاه الناس يسلّمون عليه ، وأتاه الكميت ـ ومَسْلمة لايعرفه ـ فقال : السّلام عليك ورحمة الله وبركاته ، أما بعد :

قِفْ بالدّيارِ وقوف زائرْ وتأَىَّ إنّك غير صاغـــر.[3]

(١) ورد الشطر الثانى محرفاً فى الأصول والصواب ما أثبته من الفاخر ٣

(٢) والخزانة ١ : ٨٦ .

(٣) ط : « وتأن » ، وصوابه من اللسان ـ أبى

حتى انتهى إلى قوله :

يا مسلم بن أبى الوليـــــ ـدِ لميّتٍ إن شئت ناشرْ
عَلِقَتْ حبالى من حبا لِك ذمّة الجارِ المجاورْ
فالآن صرتُ إلى أميّـ ـة والأمور لها مصايرْ
والآن كنتُ به المصيـ ـب كمهتدٍ بالأمس حائرْ

فقال مسلمة: سبحان الله ! مَن هذا الذى أقبل من أخريات الناس[1] ثم بدأنا بالسلام ، ثم قال : أما بعد ثم الشعر ؟ قيل : الكميت ، فأعجب بفصاحته ، فسأله عمّا كان فيه من طول غيبته ، فذكر له سخط هشام عليه ، فضمّن له أمانه وتوجّه به حتى أدخله على هشام ، وهشام لا يعرفه ، فقال الكميت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فقال هشام : نعم الحمد لله ، من هذا ؟ قال الكميت : مبتدىء الحمد ومبتدعه ، الذى خصّ بالحمد نفسَه ، وأمر به ملائكتَه ، وجعله فاتحة كتابه ، ومنتهى شكرِه ، وكلامَ أهل جنّته . أحمدَه حمد من علم يقيناً ، وأبصر مستبيناً ، وأشهد بما شهد به لنفسه ، قائماً بالقسط وحدَه لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده العربىّ ورسوله النبىّ الأمىّ ، الذى أرسله والناس فى هَبَوات[2] حيرة ومُدْلَهِمّات ظلمة ، عند استمرار أبّهة الضلالة . فبلّغ عن الله ما أمر به ، حتى أتاه اليقين صلى الله عليه وسلم . ثم إنىّ يا أمير المؤمنين تهت فى حَيْرة ، وحِرْت فى سكرة ، أهاب بى داعيها ، فأجابه غاوِيها ، فاقطوْطيت.[3] فى الضلالة حائداً عن الحق ، قائلا بغير الصدق ، فهذا مقام العائذ بكَ ، ومنطق التائب ، ومبصر الهدى بعد طول العمى . يا أمير المؤمنين ، كم من عاثرٍ أقلتْ عثرتَه ، ومجترم عفوتم عن جرمه !

فقالَ هشام ـ وقد علم أنه الكميت : مَنْ سنّ[4] لك هذه الغواية ، وأهاب بك

(١) فى العقد : « من هذا الهندكى الجلحاب ، الذى أقبل . . » ، والهندكى : الرجل من الهند والجلحاب : الشيخ الكبير .
(٢) الهبوات : الغبرات .
(٣) اقطوطى : قارب فى مشيه إسراعا .
(٤) ب : « من أبن » .

فى العمَاية ؟ قال : الذى أخرج آدم من الجنة فنسىَ ولم يجد له عزماً ، وأنت ياأمير المؤمنين ،أضاء الله بك الظلمة الداجية بعد العموس فيها فبصرت ، وحقن بك دماء قوم أشرِبَ خوفك قلوبهم؛ فهم يبكون لما يعلمون من حزمك وعزمك وبصيرتك ، وعزٍّ بأسك . وثبات جأشك . وأنت مستغنٍ برأيك عن رأى ذوى الألباب؛ برأى أريب، وحلم مصيب . فأطال الله لأمير المؤمنين البقاء ، وأتمّ عليه النّعماء، ودفع به الأعداء .

فرضى عنه وأمر له بمال كثير[1] .

فهذه منزلة الكميت من الشعر والخطابة خلافاً لمن يقول :القافية جلَبته فى المقامات ؛ وغيرُه من الشعراء كان أولى بموضعه .

* * *

قوله :«حاكها» ، أى نسجها. يريد أن الكميت ممن يصنع الشعر ولا يقوله على طبعه ، فلذلك قال:«حاكها». وسأل بعض الخلفاء جريراً عن النابغة وزهير ، فقال : ينيّران الشعرَ ويُسدّيانه ، والعلماء بالشعر يسمون صنّاع الشعر عبيدَ الشعر، مثل زُهير وابنه كعب والحُطيئة وعديّ بن الرقّاع والكميت .

قوله : «تخذتها» ، أى اتخذتها ،يقال :تخذ يتخذ بمنزلة اتّخذ يتّخذ ، وخُفّف عنه،حذفوا ألف الوصل من اتخذ،والتاء الأولى الساكنة ، التى هى فاء الفعل ، فبقى تخذ ،ومثله تقى يتقى واتّقى يتّقى ، حذفت ألفه وتاؤه الأولى ، وليس يطّرد هذا التخفيف ، وإنما جاء فى اتّخذ واتقى واتجه واتّسع ، فقالوا : تقى وتخذ وتجه وتسع وصلة أى موصّلة. تعافيتها: تكارهتها ،وهى تفاعلت من عفت الشيء أعافه عيافاء،أى كرهته.حالت : تغيّرت.أحوِ : أجمع. مهّد :اقبل وسهّل.أجرمت:أذنبت لنفسى ، جنيت : أذنبت لغيرى ، أراد :إن كان عذرى بيّناً فاقبله ، وإن كنت ظالماً فتجاوز واسمح . أودع : ضمّن وجعل فيه . الغضى : شجر جمره يثبت فى النار .

(١)العقد ٢ : ١٨٣ ـ ١٨٥، مع تصرف وحذف

المقامة السادسة وهي المراغية

وتعرف بالخيفاء

روى الحارثُ بن همّامٍ قال : حَضَرْتُ دِيوَانَ النَّظر بالمَرَاغَةِ ، وقَدْ جَرَى بِهِ ذِكْرُ البَلاَغَةِ ؛ فأَجْمَعَ مَنْ حضَرَ من فُرْسَانِ اليَرَاعَةِ ، وأَربابِ البَرَاعَةِ ، عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَبْقَ مَنْ يُنَقِّحُ الإنشاءَ ، وَيتَصَرَّفُ فِيهِ كيف شاءَ ، وَلاَ خَلَفَ ، بعد السَّلَفِ ، مَنْ يَبْتَدِعُ طَرِيقَةً غَرَّاءَ ، أَوْ يَفْتَرِعُ رِسالَةً عَذْرَاءَ ، وأَنَّ الْمُفْلِقَ مِنْ كُتَّابِ هَذَا الأَوَانِ ، الْمتمكِّنَ مِن أَزِمَّةِ الْبيَانِ ، كالْعِيالِ عَلَى الأَوائِلِ ، وَلَوْ ملكَ فَصَاحَةَ سَحْبانِ وَائل .

* * *

ديوان النظر ، أى مجلس المناظرة . المراغة : بلدة من كُور أذربيجان . اليراعة : القلم قبل أن يبرى ويسوّى ، فإذا بُرِىَ وسُوِّىَ قيل له قلم ، وبقى عليه الاسم الأوّل وهو اليراعة ، واليراع : القصب . أرباب البراعة : أصحاب أصالة الرأى . والبارع : الأصيل الجيّد الرأى ، ويقال : بَرَع يبرع بروعاً وبراعة ، إذا فاق فى السؤدد . وينقّح : يحسن ويخلّص . الإنشاء . الكتابة . خلَف : بَقِىَ . السلف : المتقدمون ، وسلفوا : ذهبوا وتقدّموا . يبتدع : يحدث . طريقة : حالة موصوفة ، وطريقة فلان كذا ، أى حالته التى هو عليها . غرّاء : واضحة مشهورة لم يقل أحد مثلها . وغرّة الشىء : أوّله . يفترع : يفتضّ . عذراء : بكر ، سمّيت عذراء لصعوبة جماعها ، وتعذّر الشىء : تصعّب ، وافتراع البِكْر : إدماؤها وإزالة ما تصعّب منها ، وكلّ ما أدميتَه فقد فرعتَه وافترعتَه ، فمعنى يفترع رسالة عذراء

أى يأتى برسالة قد تصعّب طريقها على غيره ، فاقتدر هو على سلوك طريقها والإتيان بها . المفلِق: النصيح المعرب الذى يأتى بالفِلْقِ ؛ وهو الشىء العجيب . الأوان : الوقت . العيال : مَنْ يتّكل فى مؤنته على غيره ولا يقوم بنفسه ، وعال الرجل عِيلةً إذا افتقر ، وعُلْتُه عَوْلاً : قمت بمؤنته ، فيريد أن كتّاب هذا الزمان عيال على من تقدّمهم حيث افتقروا إلى الأخذ من كلامهم .

وقد وعدنا أن نذكر سحبان فيما يأتى إن شاء الله تعالى .

* * *

وكان بالمجلسِ كهلٌ جالسٌ فى الحاشيَةِ ، عِندَ مواقفِ الحاشية ، فكان كلَّمَا شَطَّ القَوم فى شَوْطِهِمْ ، وَنَثَرُوا العَجْوَةَ والنَّجْوةَ مِن نَوْطِهِمْ ، يَنْبِئ نَخَازُرُ طَرْفِه ، وَتَشامُخُ أَنْفِهِ ، أَنَّهُ مُخْرَنبِقٌ لِيَنْبَاعَ ، وَمُجْرَمِزٌّ سَيَمُدّ الْباعِ ، ونابضٌ يبرى النبالَ ، وَرَابضٌ يَبْغِى النِّضَالَ . فلمَّا نُثِلَتِ الكَنائِنُ ، وفَاءَت السَّكائِن ، وَرَكدَتِ الزَّعازِعُ ، وَكَفَّ المُنازِعُ ، وَسَكَنَتِ الزَّماجر ، وَسَكَتَ المَزْجُورُ والزاجر ، أَقْبَلَ عَلَى الجماعة ، وقال :

* * *

الكهل : التامّ الخلْق ، بين الشابّ والشيخ . الحاشية : طرف المجلس . والحاشية الثانى . الأتباع وخدمة القوم ، وأصلها رُذال المال وصغاره ، قال يعقوب : الحاشية والحواشى والحشو : صغار الإبل ، وأنشد :

* جلّتها والأُخَر الحَواشيا *

لّ : جرى . شوطهم : طَلَقهم . نثروا : ألقوا عليها . العجوة : التمرة

الطيبة . والنجوة : الرديئة ، هكذا كان يفسّرها شيخنا أبو بكر بن أزهر عن ابن جَهْور ، وما وجدت فى كتاب لغة أن النّجوةَ اسم للتّمرة الرديئة ، وقد بحث عنها بعض أصحابنا غاية البحث فى كلّ كتاب فيه ذكر النخل والتّمر ، فأخبرنى أنه ماوجد لها ذكراً ، وأظنها لغة بصرية متعارفة بينهم فى التمر الردىء ، لا أنها لغة عربية ، فاستعملها كما استعمل غيرها من لغة بلده ، لأن البصرة أكثر بلادالله نخلاً ، فيسمون كل نوع من التمر باسم ، والتمر تكثر أنواعه عندهم . ورأيت أكثر أهل سِجِلْماسة لا يكادون يحصون أنواعه لكثرتها ، ورأيت بها نوعاً من التمر زعموا أنه لا يطيب أبداً ، وإنما حاله أن ينكمش على نواه ، فلا تجد إلا جلداً يابساً على النواة ، فيعلفونه المَعز ، فيحتمل أن يكون مثل هذا فى نخل البصرة يسمّى نجوة ، ويقابَل بالعجوة التى هى أشرف التمر وأطيبُه . وأما من فسر النّجوة هنا بالمرتفع من الأرض ، فلا معنى له . الفنجديهى : النّجوة ، قيل : إنها لُفاظة التمر إذا سقطت لا يبالَى بها ، فإن صحّت روايتها فكأنها سمّيت بالنجوة التى هى العذِرة . نوطهم : وعاء تمرهم ، قال أبو حنيفة : النّوطة : الجلّة الصغيرة من جلال التمر ، والجلّة : الوعاء الذى يكنز فيه التمر ، وكلّ وعاء له علاقة فهو نوْطة ، والجمع نُوط ، وقد ناطه ينوطه ، إذا علقه ، فأراد : ألقوا الكلمة الجيدة والرديئة من كلامهم . ينبىء : يخبر . تخازُر طرفه : كسر عينيه بالنّظر ، وتخازَر : نظر بمؤخَر عينيه ، وهو نظر المنكر للشىء . تشامخ : ارتفاع ، وهو فعل المستحقر للشىء . مخرنبق : متهيّئ . ليَنْبَاع : لينهض ، وفسره أبو عبيد فى الأمثال . فقال : المخرنبق : المطرق الساكت ، لينباع . ليثِبَ إذا أصاب فرصة ، قال : ومعناه أنه سكت لداهية يريدها ، وقيل : المخرنبق : الساكت على السّوء . لينباع : ليظهر الذى فى ظنه من الشرّ . مجرمّز : منقبض ، وهو كقول النابغة :

وقلت يا قوم إنّ الليث منقبضٌ على براثِنِه للوثبة الضارِى[1]

(١) ديوانه ٤٢ والضارى من وصف الليث ، ويروى : « لوثبة الضارى » .

فأخذه ابن الرومى فقال :

سكنَّ سكوناً كان رهناً بوثبة غِماس كذاك الليث للوثب يلبِدُ[1]

نابض : رام ، ويقال : أنبض القوس ، إذا جذب وتَرَها ثم أطلقه ليختبر شدّتها. ونبَض العرق : تحرّك ، فيكون : «نابض» على النسب ، أو على حذف الزائد . النهجديهىّ : أورد أبو الحسين بن فارس اللغوىّ فى كتابه المجمل أنّ نبض لغة فى أنبض ، وهما بمعنى واحد ، قال الشاعر :

فإن أباها مقسِمٌ بيمينه لئن نبضتْ كفّى فإنى لنابضُ

فصحّ بهذا قوله . رابض : لاطىء بالأرض ، وربضت الشاة : اضطجعت . يبغى النّضال ، أى يطلب المراماة ، وأراد أنه يريد أن يلقى عليهم المسائل ليجاذبوه . قوله : «نُثِلت» ، أى نفضت وصبّ مافيها . الكنائن : الجعاب ، وهى أوعية السهام . فاءت : رجعت . السكائن : جمع سكينة ، وهى الوقار ، يريد : أتمّ أهل المجلس كلامهم فسكتوا . ركدت : سكنت . الزعازع : الرياح الشديدة المزلزلة ، واحدها زعزع . كفّ المنازع : أمسك المخالف ، يريد انقطع كلامه .

* * *

لَقَدْ جِئْتُمْ شيئاً إِدًّا ، وَجُرْتُمْ عن الْقَصْدِ جِدًّا ، وَعَظَّمتمُ الْعِظام الرُّفاتَ ، وافْتَتُّمْ فِي الْمَيْلِ إِلَى مَن فاتَ ، وَغَمَصْتُمْ جِيلَكُمْ الَّذِين فِيهِمْ لَكُم اللِّدَاتُ ، وَمَعَهُمْ انْعقَدَتِ الْمَوَدَّات ، أَنسِيتُمْ ياجَهابِذَةَ النَّقْدِ ، وَمَوابِذَةَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ ، مَا أَبرَزتْهُ

(١) يلبد ، أى يجثم على الأرض .

طَوَارِفُ الْقَرَائِحِ ، وَبَرَّزَ فِيهِ الْجَذَعُ عَلَى الْقَارِحِ ، مِنَ الْعِبَارَاتِ الْمُهَذَّبَةِ ، وَالاسْتِعَارَاتِ الْمُسْتَعْذَبَةِ ، وَالرسَائِلِ الْمُوَشَّحَةِ ، وَالأَسَاجِيعِ الْمُسْتَمْلَحَةِ ! وهلْ لِلْقُدَمَاءِ إِذَا أَنْعَمَ النَّظَرَ ، مَنْ حَضَرَ ، غيرُ الْمَعَانِى الْمطروقةِ الْمَوَارِدِ ، الْمَعْقُولَةِ الشَّوَارِدِ ، الْمَأْثُورَةِ عَنْهُم لِتَقَادُمِ الْمَوَالِدِ ، لا لتقدُّمِ الصَّادِرِ على الْوَارِد ! وإِنى لأَعْرِفُ الآن من إِذَا أَنشَا ، وَشَّى ، وَإِذَا عَبَّرَ ، حَبَّرَ ، وإِن أَسْهَبَ ، أَذْهَبَ ، وَإِذا أَوْجَزَ ، أَعْجَزَ ، وَإِنْ بَدَهَ ، شَدَه ، وَمتَى اخْترعَ ، خَرَعَ .

* * *

إِدًّا : أمراً فظيعا منكراً . جُرتم عن القصد : خرجتم عن الاستقامة . جدًّا : كثيراً . الرفات : البالية . افتتم : فعلتم مالا يجب وتجاوزتم فيه ، ويقال : افتتات الرجل « افتعل » من الفَوات ، وفات : ذهب وعدم . غمصتم : حقّرتم وغطيتم . جيلكم : أهل عصركم . اللّدات : جمع لِدَة ، وهو الذى ولد معك . جهابذة : حذّاق ؛ الواحد جِهْبِذ . النقْد : معرفة الكلام ، نقده : ميّزه ، وأصله من ميز الدراهم الجيدة من الرديئة . موابذة : حكام ، والموبذ : الكثير الجاه من الفُرْس ، مثل الوزير والقائد . أبرزته : أظهرته . طوارف ، جديدات وغريبات . القرائح : الأذهان . برز : غلب . الجَذَع من الخيل ابن سنتين . القارح : ابن خمس ، أى غلب فيه الحديث العصرَ القديم . عبارات : جمع عبارة وهى التفسير ، وعبّرت عن فلان : تكلّمت عنه وكنت لسانَه . المهذّبة : المخلّصة من العيب . الاستعارة : أن تعير اللفظ ما يستحقّه غيره ، وهى من العاريّة . الموشّحة : المزيّنة . الأساجيع : جمع أسجوعة ، وهى الكلام المربوط بقافية . أنعم : بالغ . المطروقة :

التى نزل عليها . المعقولة : المربوطة . الشوارد : الفارّة، يقول : ليس للقدما. إلا المعانى التى قصدها المتأخّرون ، كما قصدها المتقدّمون ، وقيّدها المتأخرون بالكتاب كما قيّدها المتقدّمون ، فكان تقييدها سبباً لأن مشت فى الأقطار فعرفت وحفظت . المأثورة : المحدّث بها . الصادر : الخارج عن الماء ، والوارد : الداخل إليه ، وذكر هنا أنّ الصادر يتقدّم الوارد ، وذلك أنا إذا فرضنا موضع ماء لا يمكن وروده إلا واحداً بعد واحد ، فالصادر يسبق الوارد على ما ذكره فى المقامة . قال الحريرى فى درة الغواص : إنّ[1] الخواصّ يقولون :هذا أمر يعرفه الصادر والوارد ، ووجه الكلام أن يقال : الوارد والصادر ، لأنه مأخوذ من الوِرْد والصدر ، ولما كان الوِرْد يقدُم الصّدر ، وجب أن يقدّم لفظ «الوارد» على الصادر ، وهذا كما ترى،الورد يقدم الصدر فى حق واحد ، يقال:وَرَد الماء ثم صدر عنه ، وأما فى حق اثنين كما قدّمنا وكما ذكر هو فى هذه المقامة ، فالصادر يتقدّم الوارد . وقول الناس : هذا أمر يعرفه الصادر والوارد فى حق اثنين ،فهم فيه على صواب ، ومحال أن يكون المثل فى حق واحد ، لأنّ الشىء لا يعطَف على نفسه ، ولو كان الوارد على زعمه يتقدّم الصادر لجاز تقديم الصادر عليه ،لأنّ الواو لا تعطى رتبة ،يقول : لا نتحدّث بكلامهم ونظمهم ونثرهم لفضلهم علينا ، لكن لسبقهم لنا .

أنشأ : كتب . وشّى : زيّن ورقّم . عبّر : تكلم أو فسّر . حبّر : حسّن . أوجز : اختصر . أعجز ،أى عجز عن فعله غيره . أسهب:أطال الكلام . أذهب : جاء بالذهب ، وأصل أسهب ، حفر بئرا بعيدة القعر ، وأذهب : صادف معدن الذهب فى حفير . بدَه : ارتجل ولم يتفكّر . شدَه : حيّر من يتعاطى منزلته . اخترع : قال ما لم يُسبق إليه . خرع : شقّق المعانى .

* * *

فَقَالَ لَهُ ناظُورَةُ الدِّيوانِ ، وَعَيْنُ أُولئِكَ الأَعْيَانِ : مَنْ قارِعُ هَذِى الصَّفاةِ ، وَقَرِيعُ هَذِهِ الصِّفاتِ ؟ فقال : إِنَّهُ قِرْنُ

(١) درة الغواص ص ٧١ .

مَجَالِكَ ، وَقَرِينُ جِدَالِكَ ؛ وَإِذَا شِئْتَ ذَاكَ فَرُضْ نجيبًا ، وَادْعُ مُجِيبًا ، لترى عَجِيبًا . فقالَ لَهُ : ياهَذَا ، إِنَّ الْبُغَاثَ بِأَرْضِنَا لا يَسْتَنْسِرُ ، وَالتَّمْيِيزَ بَيْنَ الْفِضَّةِ وَالْقِضَّةِ مُتَيَسِّرٌ ، وَقَلَّ مَنِ اسْتَهْدَفَ لِلنِّضَالِ ، فَخَلَصَ مِنَ الدَّاءِ الْعُضَالِ ، أَو اسْتَثَارَ نَقْعَ الامْتِحَانِ ، فلَمْ يَقذَ بالامْتِهَانِ ، فَلا تُعَرِّضْ عِرْضَكَ لِلْمَفَاضِحِ ، وَلاَ تُعْرِضْ عَنْ نصَاحَةِ النَّاصِحِ . فقَال : كلُّ امْرِىءٍ أَعْرَفُ بِوَسْمِ قِدْحِهِ ، وَسَيَتَفَرَّى اللَّيْلُ عَنْ صُبْحِهِ . فتناجَتِ الجماعةُ فِيما يُسْبَرُ بِهِ قَلِيبُهُ ، وَيُعْمَدُ فِيهِ تقليبُه ؛ فقال أحدهم : ذروه فى حِصَّتِي ؛ لأَرمِيَهُ بِحَجَرِ قِصَّتِي ، فإنَّهَا عُضْلَةُ العُقَدِ ، وَمَحَكُّ المنتَقِدِ . فقلَّدُوه فى هَذَا الأمر الزَّعَامَةَ ، تقليدَ الْخَوَارِجِ أَبا نَعَامَةَ .

* * *

قوله: «ناظورة» ، أى كبير القوم ومقدّمهم الذى ينظرون إليه . الديوان: دار الكتّاب وموضع اجتماعهم . والديوان ، الزمام يكون فيه أسماء الجند وأرزاقهم، وأصله «دِوّان» ، فقلبت واوه الأولى ياء لانكسار ماقبلها،ودلّ عليه دواوين فى جمعه ، وهو اسم أعجمى عرّب ، والأصل فى تسميته أن كسرى أمر الكتّاب أن يجتمعوا له فى دار ، ويعملوا حساب السواد فى ثلاثة أيام ، وأعجلهم فيه ، فأخذوا فى ذلك ، واطّلع عليهم لينظر مايصنعون ؛ فنظر إليهم يحسبون بأسرع مايمكن ، وينسخون كذلك ، فعجب من كثرة حركتهم، فقال: أرى «ديوان» ومعناه شياطين ، ثم سمّى موضعهم ديوانًا ، ثم استعملته العرب ، وجعل كل محصّل

من كلام أو شعر ديواناً[1]. قارع: ضارب وكاسر. الصّفاة: الصخرة الملساء، استعارها للصعب من الكلام. قريع: سيّد. الصّفات: النعوت التي تقدّم أنه يُعرَف بفعلها. وقِرْن مجالك: صاحب كلامك الذى تجول فيه — يعنى نفسه. قرين جدالك: صاحب مجادلتك، والقِرْن بالكسر: الذى يماثلك فى شدّة أو خصام أو عِلْم، وإن لم يكن بينكما معرفة، وقرينك: صاحبك الذى لا يفارقك كأنه قُرِن معك. والمجال: الموضع الذى تُراض فيه الخيل. رُضْ: سسْ ولَيِّن. النجيب: الفحل الكريم من الإبل، وعنى نفسه. ادع مجيباً، يقول: سِمْنِى ثم ادعنى أستجب لك. ترى عجيباً، فى حسن جوابى. البُغاث: صغار الطير. يستنسر: يصير نسراً، يقول: نحن أهل علم ومعارف، فلا تجوز علينا المخاوف، والعرب تقول فى أمثالها: «إن البغاث فى أرضنا يستنسر»، أى يرجع الضعيف قويا لعزّنا وحمايتنا له ممن يريده، وقيل فى البغاث: إنه ذكر الرَّخَم، وقيل: البُغاث كلّ ما يُصاد من الطير، والجوارح: كلّ ما يصيد، والرّهام: ما لا يصيد ولا يصاد، كالخطّاف وغيره. القِضّة: الحصى البيض الصغار، ويقال: جاء بالقضّ والقضيض بالقاف والضاد، ومعناه جاء بالكبير والصغير. والقضيض: صغار الحصى وما تكسّر منه، وقالوا: جاءوا قضّهم بقضيضهم. أى كلّهم. استهدف: صار هدفاً، وهو الغَرَض للسهم. النّضال: المراماة. العُضَال: الذى لا يُبرأ منه. استثار: حرّك نقع غبار. الامتحان: الاختبار. يَقْذَ: يقع فى عينه القَذَى، وهو ما يسقط فى العين، ويقول: من صار غرضاً للألسنة قلّ أن يسلم، ومن صار طالباً لمناظرة أهل المعارف أهين وأفحم. المفاضح: المخزيات واشتهار العيوب. وَسْم: علامة. قدْحه: سهمه، يريد قداح الميسر، وكان كلّ رجل يعمل فى قدحه علامة يعرف بها، قال دريد بن الصّمة:

وأصفر من قداح النَّبع فرع ... به عَلَمان من عَقَبٍ وضَرْسِ[2]

(١) المعرب للجواليقى ١٥٤، وفى إطفاء الغليل ٩٤ عن المرزوقى فى شرح الفصيح، قال: هو عربى، من دونت الكلمة إذا ضبطتها.

(٢) اللسان — ضرس

الضّرس : العضّ بالضِّرس ، وسنذكر فى الثالثة والأربعين قِداح العرب :

سيتفرّى : سيتكشّف. قوله: «تناجت» ، أى تحدّثت سرًّا. يُسبَر: يقاس. قليبه : بئره . يَعْمَد : يقْصَد . تقليبه: تجريبه . ذرُوه : اتركوه . حِصّتى : نصيبى. قصتى : خبرى ، وجعل لمسألته حجراً يرميه به مجازاً . عُضْلة : صعبة . العقد : جمع عقدة ، يريد أن عقدها صعب الحلّ . محك المنتقَد : وهوحجر يقاس به جيِّد الفضة والذهب من الردىء ؛ أراد أن مسألته نهاية فى الصعوبة ، والعُضْلة : كل مسألة شديدة لايُهتدى لمثلها ، ولا يوقف على جوابها ، من قولهم : داء عضال ومعضل ، إذا كان شديداً لايُهتدى لدوائه ، ولا يوقف على علاجه ، وعضّلت المرأة تعضيلا، نشب ولدها فى بطنها ، وعضّلت الدجاجة بيضتها كذلك ، وفلان عُضْلة من العضل ، أى داهية لا يُهتدى لمكره . قوله : « الزعامة » ، أى الرياسة .

[ذكر قَطَرىّ بن الفجاءة]

وأبو نعامة هو قَطَرِىّ بن الفجاءة التميمىّ الخارجىّ . وكان له فرس يكنَى بها فى الحرب ، ويكنى فى السلم أبا محمد . وقَطَرىّ : منسوب إلى قَطَر ، موضع قريب من عُقير .

وكان فارساً شجاعاً شاعراً مجيداً ، وكان رئيسَ الخوارج ، وسلّموا عليه بأمير المؤمنين عشرين سنة ،وكان خطيباً فصيحاً . وله خطبة فى ذمّ الدنيا انتهى فيها من البلاغة إلى الغاية . وأوّلها :

أمابعد فإنّى أحذّركم الدنيا فإنها حلوة خضِرة ، حُفّت بالشهوات ، وراقَتْ بالقليل ، وتحبّبت بالعاجل ، وتحلّت بالأمانىّ ، وتزيّنت بالغرور ، لاتدوم زهرتها ، ولا تُؤمن فجعتها ، غرّارة ضرارة ، حائلة زائلة ، نافدة بائدة ،

لا تعدو إذا هى تناهت إلى أمنيّة الرغبة فيها ، والرضا عنها ، أن تكون كما قال تعالى : ﴿ كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كلِّ شىءٍ مُقْتَدِرًا ﴾ .

ومنها :

كم واثقٍ بها قد فجعته ، وذى طمأنينة إليها قد صرعته ، وذى احتيالٍ فيها قد خدعته . وكم من ذى أُهْبة فيها قدصيَّرته حقيراً ، وذى نَخْوة قد ردَّته ذليلاً ، وذى تاج قد كبَّته لليدين والفم ؛ سلطانها دوَل ، وعيشها رَنَق ، وعذبها أُجاج ، وحلوُها صبِر ، مليكها مسلوب ، وعزيزها مغلوب ، وسليمها منكوب ، وجامعها محروب ؛ مع أنّ وراء ذلك سكرات الموت ، وهول المطلع ، والوقوف بين يدى الحكَم العدل ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ .

ومن جيّد شعره فى وقعة دُولاب :

لعمرك إنى فى الحياة لزاهدٌ ... وفى العيش ما لم ألقَ أمّ حكيمِ (١)

من الخفِرات البيض لم يُرَ مثلُها ... شفاءً لدى بثٍّ ولا لسقيمِ (٢)

لعمرُك إنى يوم ألطِم وجهَها ... على نائبات الدهر جدُّ لَئيمِ

ولو شهدتنى يوم دُولاب أبصرَتْ ... طعان فتًى فى الحرب غير ذَميمِ (٣)

غداة طفَت علْماء بكر بن وائل ... وَعُجْنا صدورَ الخيل نحو تميمِ (٤)

---

(١) الأغانى ٦ : ١٤٨ ، الكامل للمبرد ٣ : ٢٩٨ .

(٢) الأغانى : « لم أرمثلها » .

(٣) دولاب ، قال فى الأغانى : « هى قرية من عمل الأهواز ، بينها وبين الأهواز نحو من أربعة فراسخ ، كانت بها حرب الأزارقة ومسلم بن عبيس بن كريز ، خليفة عبد الله ابن الحارث بن نوفل بن عبد المطلب ، وذلك فى أيام ابن الزبير » .

(٤) علماء ، يريد على الماء ، وبعده فى رواية المبرّد :

وكان لِعَبْدِ القَيْسِ أوّلُ جَدِّها ... وأحلافِها من يَحْصُبٍ وسَلِيمِ

وظلّتْ شيوخ الأزْدِ فى حَوْمَةِ الوغى ... تعومُ وظَلْنَا فى الجلاء نعومُ

وفى البيت الثانى إقواء .

فلم أرَ يوماً كان أكثر مفظعا[1] يُمُجُّ دماً من فائظٍ وكليم[2]
وضاربة خدًّا كريماً على فتًى أغرّ نجيب الأمّهات كريم
أصيب بدُولابٍ ولم تَكُ موطناً له أرض دولابٍ ودِيْر حميم[3]
فلو شهدتْني يوم ذاك وَخَيْلُنَا تبيح من الكفار كلَّ حريم
رَأَتْ فتيةً باعوا الإله نُفُوسهمْ بجنات عدن عنده ونعيم

وأمّ حكيم التى شبّب بها، كانت معه فى عسكر الإباضيّة، وكانت من أشجع الناس، وأجملهمْ وجها، وأحسنهم بدينه متمسّكا. وكان قَطَرِيّ يحبّها ويجلّها، وأخبر من شاهدها فى تلك الحروب أنها كانت ترتجز فتقول:

أحمِلُ رأساً قد سئمتُ حَمْلَهْ وقد مللتُ دَهْنَهُ وَغَسْلَهْ

* ألاَ فتًى يحمل عنّى ثِقْلَه *

والخوارج يفدّونها بالآباء والأمهات، وخطبها جماعة من أشراف الخوارج فردّتهم، وقالت:

ألا إنّ وجها حسَّن الله خلقَهُ لأجدر أن يُلْقَى به الحسن جامعاَ
وأكرِم هذا الجِرْمَ عن أن ينالَهُ تورّكَ فَحْلٍ همّه أن يجامعا

أين هذه من أمّ خارجة، واسمها عمرة بنت سعد، كان يقال: لهاخِطْب فتقول: نِكْح، وضرب بها المثل فقيل: أسرعُ من نكاح أمّ خارجة[4].

---

(١) الأغانى والكامل: «مقصدا»، وهو الطعن بالرماح.
(٢) ط: «فائض». تحريف، صوابه من ا، ب؛ والفائظ، من قولهم: «فاظ الرجل، إذا مات».
(٣) دير حيم: موضع بالأهواز.
(٤) الميدانى ١: ٣٤٨

وأين هى من حفيدة قطرىّ مع صاحبها ، حكى الإصبهانىّ عن إسماعيل بن المهاجر قال : خرجت أنا والسيّد الحميرىّ سكارى ، فلقينا بنت الفُجاءة بن عمرو ابن قَطَرِىّ بن الفجاءة ، وكانت امرأة بَرْزَةً حسناء ، فواقفها السّيّد ، وأنشدها من شعره ، فأعجب كلّ واحد منهما صاحبَه ، ثم خطبها ، فقالت : كيف يكون هذا ونحن على ظَهْر الطريق ! قال : يكون كنكاح أمّ خارجة ، قيل لها : خِطْب ، قالت : نِكْح ، فاستضحكت وقالت : نَنظر فى هذا ، وعلى ذلك فمن أنت ؟ قال :

إن تسأليني بقوْمى تسألى رجلاً ... فى ذِرْوة المجد من أجواد ذِى يَمَنِ (١)
ثمّ الولاَء الذى أَنْجُو النجاةَ به ... من كَبَّة النَّارِ للهادى أبى حسنِ

فقالت : لا شىء أعجب من هذا ! يمانىٌّ وتميمية ، ورافضىّ وإباضيّة ، فكيف يجتمعان ! فقال : بحسن رأيك تسخو نفسك (٢) ، ولا يذكر أحدنا سلفاً ولا مذهباً ، قالت : أفليس التزويج إذا عُلِم ، انكشفتْ معه الستور (٣) ؟ قال : وأنا أعرض عليكِ أخرى ، قالت : وما هى؟ قال : المُتْعة (٤) التى لا يعلم بها أحد ، قالت :

---

(١) بعده فى رواية الأغانى :

حَوْلِى بها ذو كَلاعٍ فى منازِلِهَا ... وذو رُعينٍ وهَمْدَانٌ وذُو يَزَنِ
والأزْدُ أزدُ عُمَانِ الأكرمون إذا ... عُدَّتْ مآثرهمْ فى سالفِ الزَّمَنِ
بانتْ كريمتُهُمْ عنّى فدارُهُمُ ... دارى فى الرحب من أوطانهم وَطنِى
لى منزلانِ : بلحْجٍ منزلٌ وسطٌ ... منها ، ولى منزلٌ للعزّ فى عَدَنِ

(٢) ط : « تحشد نفسك » ، وما أثبته من الأغانى .

(٣) الأغانى : « انكشف معه المستور وظهرت خفيات الأمور » .

(٤) المتعة : أن تتزوج امرأة تتمتع بها أياما ، ثم تخلى سبيلها ؛ وذلك أن الرجل كان يشارط المرأة شرطا على شىء بأجل معلوم ، ويعطيها شيئا ، فيستحلها بذلك ، ثم تخلى سبيلها من غير تزويج ولا طلاق ؛ وقد كانت مباحة فى أول الإسلام ثم حرمت ؛ والجلودى ؛ أحد كبار علماء الشيعة الإمامية كتاب أسماه : « المتعة وماجاء فى تحليلها » .

تلك أخت الزنا ، قال : أعيذك بالله أن تكفرى بعد إيمانك ! قالت : وكيف ؟ قال لها : قال الله تعالى: ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً﴾ ، قالت: أستخير الله وأقلدك، إذْ كُنت صاحب قياس وتفتيش . ولما انصرفت معه ، وبات معرسًا بها ؛ وبلغ أهلَها من الخوارج أمرُها توَعّدوها بالقتل ، فجحدت وقالوا : أتزوجتِ بكافر ! فكانت تختلف إليه مدّةً وتواصله[1] .

وقوله: «تقليد الخوارج أبا نعامة» ، لما قُتِل الزّبير بن علىّ السّليطى أمير الخوارج، أداروا أمرهم ، فأرادوا تولية عبيدة بن هلال اليشكرىّ ، فقال: ألا أدلّكم على من هو خير منّى لكم ؟ مَنْ يطاعن فى قُبُلٍ ، ويحمى عن دُبُر ؛ عليكم بقطرىّ ابن الفجاءة المازنىّ ، فبايعوه .

* * *

فَأَقْبَلَ عَلَى الْكَهْلِ، وقالَ : اعْلَمْ أَنِّى أُوَالِى ، هَذَا الوَالِى ، وَأُرَقِّحُ حَالِى، بالْبَيَانِ الْحَالِى. وَكُنْتُ أَسْتَعِينُ عَلَى تَقْوِيمِ أَوَدِى ، فى بلدِى، بِسَعَةِ ذَاتِ يدِى، مَعَ قِلَّةِ عَدَدِى . فلمَّا ثَقُلَ حاذِى ، وَنَفِدَ رَذَاذِى ، أَمَمْتُهُ مِنْ أَرْجَائِى ، بِرَجائى، وَدَعَوْتُه لإِعَادَةِ رُوَائى، وَإِروائى ؛ فَهَشَّ لِلْوِفادَةِ وَارْتَاحَ ، وَغَدَا بالإِفادَةِ وَرَاحَ . فلمَّا اسْتَأْذَنْته فِى الْمَرَاحِ ، إِلَى الْمُرَاحِ ، عَلَى كَاهِلِ الْمِرَاحِ؛ قال: قَدْ أَزْمَعْتُ أَلاَّ أُزَوِّدَكَ بَتَاتًا ؛ وَلاَ أَجْمَعُ لَكَ شَتَاتًا ، أو تُنْشِئَ لِى أَمَامَ ارْتِحالِكَ ، رِسَالَةَ تُودِعُهَا شَرْحَ حالِكَ ، حُرُوفُ إِحْدَى كَلِمَتِيهَا يَعُمُّهَا النَّقْطُ ، وَحُرُوفُ الأُخْرَى لَمْ يُعْجَمْنَ قَطُّ ، وَقَد اسْتَأْنَيتُ

(١) الأغانى ٧ : ٢٦٤ . مع اختلاف فى الرواية .

بيانى حَوْلا ، فما أَحارَ قولاً ، وَنبَّهْتُ فكْرِى سَنَةً ، فما ازدَادَ إلاَّ سِنةً . واستعنتُ بقاطبةِ الكتَّاب ، فكلٌّ مِنهمْ قَطَّبَ وَتَاب ، فإن كُنتَ صَدَعْتَ عَنْ وَصْفِكَ باليقينِ ، فأْتِ بآيةٍ إن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِين .

فقال له : لقد اسْتَسْعيْتَ يَعْبُوبًا ، واسْتَسْقَيْتَ أُسْكُوبا ، وأَعْطَيْتَ القَوْس بارِيها ، وَأَسْكَنْتَ الدَّارَ بَانيها . ثم فَكَّر رَيْثما استجمَّ قريحتَهُ ، واسْتَدَرَّ لِقحتَهُ ، وقال : أَلقِ دَواتَكَ وَاقْرُبْ[1] ، وَخُذْ أَداتَكَ وَاكْتُبْ :

* * *

قوله : « أوالى » ، أى ألازم وأتخذه وليًّا . أرقّح : أصلح ، يقال رقّح من عيشه ، إذا أصلح منه ، قال الشاعر :

يترك ما رقَّح من عيشِهِ يَعْبَثُ فيه هَمَجٌ هَامِجُ[2]

الهَمَج : البعوض ، ثم قيل لأرذال الناس : همج . الحالى : المزيّن بالحُلِيّ . أَوَدِى : عوَجى . سعة : كثرة . ذات يدى ، أى مالى . عددى : عِيَالى . حاذى : ظهرى ، وفلان خفيف الحاذ ، أى قليل العيال ، وأصل الحاذ مؤخر الفخِذين . نفد رذاذى : فرغ قليل مالى ، والرَّذاذ . المطر الضعيف . أمَّته : قصدته . أرجائى : جهاتى وبلادى . رجائى : أملى . رُوائى : حسن هيئتى وحالى : إروائى : إزالة عطشى . هَشّ : خفّ ، ورجل هشّ بسّام : طليق الوجه . للوفادة : للقدوم عليه . وارتاح : طرب واهتزّ . الإفادة : تكسيب الفوائد . المَرَاح ، بفتح الميم : المشى والانصراف .

(١) ساقطة من مخطوطة المقامات .

(٢) اللسان ـ رقح ، ونسبة إلى الحارث بن حلزة .

والمُراح، بالضم: الموضع الذى تَرُوح إليه الإبل وتروح منه، أو تراح إليه، أى تساق بالعشىّ. والمِراح، بالكسر: النشاط والخِفّة، وقد مرِح مَرَحا، لعب، من الفرح. كاهل: ما بين فروع الكتفين، استعاره للنشاط. أزمعت: عزمت. بتاتاً: زاداً. شتاتاً: مالاً متفرّقا. تنشىء: تصنع وتكتب. أمام ارتحالك: قبل سفرك: تودّعها: تضمّنها وتجعل فيها. يعجمن: ينقطن، وأعجمت الكتاب: أزلت عنه عُجمته.

قطّ: لفظة موضوعة لما مضى من الدهر. وجعل الحريرىّ قول الخواصّ: «لا أكلمه قطّ» من أفحش الخطأ لتناقض الكلام، قال: وذلك أنّ العرب تستعمل لفظة «قطّ» فيما مضى من الزمان، كما تستعمل لفظة «أبداً» فيما يستقبل، فيقولون ما كلّمته أبداً، والمعنى: ما كلّمته فيما انقطع من عمرى، لأنه من قططتُ الشىء، إذا قطعته، ومنه قطّ القلم، إذا قطع طَرَفه. وفيما يؤثر من شجاعة علىّ رضى الله عنه أنه كان إذا استقبل قدّ، وإذا استدبر قطّ، فالقدّ قطع الشىء طولاً، والقطّ قطعُه عرضاً[1]. يقول: تصنع رسالة تضمنها حالك، يكون تركيبها من كلمة يعمّ حروفها النّقط، وكلمة لا ينقط منها حرف، وبهذا المعنى سُمِّيَت المقامة الخيْفاء، لأنّ الأخيفَ من الخيل: الّذى إحدى عينيه زرقاء. والأخرى كحلاء. استأنيت: أمهلت وأخّرت. أحار: ردّ وراجع. نبّهت: أيقظت. سَنَة: حولا. سِنَة: نوما. قاطبة: جماعة. قطّب وجهه، إذا عبّسه. صدَعت: أوضحت وأظهرت، وأصل الصدع الشقّ. باليقين: بالحقّ الواضح. آية: علامة، قال ابنُ الأنبارىّ رحمه الله: فى قولهم آية من القرآن ثلاثة أوجه: قيل إنها علامة لانقطاع الكلام قبلها وبعدها، واحتجّ أبو عبيدة لذلك بقول الشاعر:

* بآيَةِ ما تحبُّونَ الطَّعَامَا *

(١) درة الغواص ٨

وبقول النابغة :

توهَّمْتُ آياتٍ لهـا فعرفتُها لستَّةِ أعْوَامٍ وذَا العَامُ سَابِعُ[1]

الثانى: سُمِّيت الآية لأنها جماعة حروف ، قال أبو عمرو: خرج القوم بآيتهم، أى بجماعتهم .

الثالث : سُمِّيت آية لأنها عجب من العجائب ، فالآية العجب .

قوله : «استسعيت» : طلبت سعيه أى جريه . واليَعْبُوب: الفرس السريع . استسقيت : استمطرت وطلبت سُقياه . والأُسكُوب : المطر الكثير . باريها : صانعها ، وكل هذه أمثال ، ويريد : أنا أهْلٌ لكلّ ماطلبت .

[الحطيئة وسعيد بن العاص]

وأوّل من قال: أعط القوس باريها[2] الحطيئة ، وذلك أنه دخل على سعيد ابن العاص وهو يقرِى النّاس ، فأكل أكلاً جافياً ،وخرج الناس ، فأقام ، وأتاه الحاجب ليُخرجه فامتنع ، وقال : أترغب بهم عن مجالستى ! إنّى بنفسى عنهم لأرغب ! فقال له سعيد : دَعْه . ثم تذاكروا الشعر والشعراء ، فقال لهم الحُطيئة: والله ما أصبتم جيّد الشّعر ولا شاعر العرب ، ولو أعطيتم القوس باريها ، وقعتم على ما تريدون ، فقال له سعيد : فمن أشعر العرب ؟ قال : الذى يقول :

لا أُعِدُّ الإقتار عُدْمًا ولـكنْ فَقْدُ مَنْ قَدْ رُزِئْتُه الإعْدَامُ

إلى آخر القصيدة . قال : فمن قائلها ؟ قال : أبو دواد الإيادىّ ، قال : ثم من ؟ قال : والله لحسبك بى رهبة أو رغبة ؛ أنا إذا رفعت إحدى رجلىّ على الأخرى ، وعويت فى إثر القوافى كما يعوى الفصيل الصادى إثْرَ أمّه ؛ قال :

(١) ديوانه ٥٠ .
(٢) الميدانى ٢ : ١٩ ، وجمهرة الأمثال ١ : ٧٦ .

[من أنت ؟ قال:][1] الحُطيئة ، قال: حيَّاك الله ياأباماليكة، ألا أعلمْتنا بمكانك ، ولم تحملنا على الجهل بك ، فنضيع حقّك ونبخسك قسطَك ! وأدناه ووصله[2] .

وقال الشاعر :

يا بارئَ القَوْس برْيًا ليس يُحْسِنُه ... لاتظلم القوس واعط القوسَ بارِيهَا

ريث : مقدار وبطء . استجمّ : استكثر . قريحته : طبيعته ، والقريحة فى الأصل أوّل ماء البئر النابع ، واستجمّها : تركها حتى تكثر . استدرّ : استنزل دَرَّهَا وهو لبنها . واللِّقْحَة : الناقة ذات اللبن ؛ يريد: أقام قليلا يفكّر ويختار ما يقول : ومثل هذه الحالة ذكرُوا أن صديقا لكلثوم العتابىّ أتاه يوما ، فقال له : اصنَعْ لى رسالة ، فاستمدّ مُدَّة ، ثم علّق القلم ، فقال له صاحبه : ماأرى بلاغتك إلاّ شاردةً عنك ، فقال له العَتّابىّ : إنى لمّا تناولتُ القلم تداعت علىّ المعانى من كلّ جهة ، فأحببت أن أترك كلّ معنى حتى يرجع إلى موضعه ، وهذا مثل قول امرىء القيس ـ ويقال إنه قالها وهو ابن عشر سنين :

أذودُ القوافِيَ عنّى ذيادَا ... ذيادَ غلامٍ غويّ جَوادَا[3]

فلمّا كثُرْن وعنّينَه ... تخيّر منها جوادًا جيادَا

فأعزل مَرجانها جانبا ... وآخذ من دُرّها المستجادَا

وقال عريف القوافى[4] :

أبيتُ بأبواب القوافِي كأنّمـا ... أصادى بها سِرْبا من الوحش نزّعَا

عواصِيَ إلا ما جعلت وراءها ... عصا مِرْبَدٍ تغشَى وجوهًا وأذرُعَا

إذا خفت أن تُروَى علىّ رددتُها ... وراء التراقِى خشيـة أن تطلّعا

---

(١) من الأغانى (٢) الأغانى ٢ : ١٦٧ ، مع تصرف واختصار .

(٣) ديوانه : ٢٤٨ .

(٤) كذا ذكر المؤلف، والأبيات فى الشعر والشعراء ٦١٦،٢٣ ، والبيان والتبيين ٢ : ١٢ والأغانى ١١ : ١٢٣ منسوبة لسويد بن كراع .

أصادِى : أدارى ، وجعل القوافى تقتحم عليه كالإبل ، وهو يضربها بعصاه حتى يختار جيادها .

[فصل فى الدواة والمداد والقلم]

قوله «أَلِقْ» ، أى اجعل فيها لِيقة، تقول: لِقْت الدواة فهى مَليقة ، وألقتُها فهى مُلَاقة ، وجمع اللِّيقة لِيَق. ويقال للصُّوفة قبل أن تُبَلّ بالمداد: البُوهة والموارة ، فإذا بلّت بالمداد سُمِّيت ليقة ، وقد يقال لها : ليقة قبل أن تُبَلّ، سميت بما تئول إليه ، كما قيل للكبش: ذبيح، وللصيد : رميّة ، فإن كانت قطنة فهى العُطْبة والكُرْسفة، وكرسفت الدواة كرسفةً ، والقطن كلّه يقال له : العُطُب والكُرسف .

ويقال للمداد : نِقْس ونَقْس ، والكسر أفصح ، وقيل : الفتح مصدر نَقَسْتها ، جعلت فيها نقْساً ، والحِبْر من المداد بالكسر لا غير ، والحَبْر بالفتح والكسر : العالِم. وقال بعضهم : سمِّىَ المداد حِبراً باسم العالم ، كأنهم أرادوا مداد حِبْر ، فحذفوا ، ولو كان ماقالوه صحيحاً لقالوا للمداد : حَبْر بالفتح ، والأشبه أن يسمَّى حَبْراً لأنه يحسِّن الكتابة ، من قولهم : حبرت الشىء إذا حسَّنته . ويقال للجمَال : حَبْر وسَبْر ، فمداد حَبر ، كقولك مداد زينة وجمال ، أو يكون من الحَبَر والحُبار ، وهو الأثر ، فيسمَّى بذلك لتأثيره فى الكتاب . ويقال : مددت الدواة أمدّها مدًّا ، إذا جعلت فيها مِدَاداً ، فإن كان فيها مداد فزدت عليه قلت : أمددتها ، فإذا أمرته أن يأخذ من المداد بالقلم قلتَ : استمد ، فإن سألْتَهُ أن يعطيك على القلم مِداداً ، قلت: أمدِدْلى من دواتك ، واستمددته أنا ؛ سألتُه أن يمدّنى . وقال الخليل : مُدّنى وأمدّنى : أعطنى من مداد دواتك ، وكلّ شىء زاد فى شىء فهو مداد له ، وأمهت الدّواة وموّهتها ؛ إذا جعلت فيها ماء ، والأمر من ذلك كلّه أمِهْ وموّهْ دواتك .

واشتقاق الدّواة من الدّواء ، لأنه بها إصلاح أمر الكتّاب ، وبعض الشعراء اشتقّها من دَوِىَ الرجل يَدْوَى دَوِيًّا ، إذا صار فى جوفه الداء ، قال :

أمّا الدواة فأدوَى حملُها جسدى وحرّف الخطَّ تحريفٌ من القلم[1]

ووزنها « فَعَلة » تحرّكت الياء وقبلها فتحة ، فقلبت ألفاً ، وتجمع دَوَيات ؛ كقناة وقَنَوات ، ودوًى كقناة وقناً . ويقال : أدويت فأنا مدوٍ : اتّخذت دواة ، ويقال للذى يبيعها : دوّاء كخيّاط ، وإذا أمرت من يتخذها قلت : أدْوِ دواةً ، ويقال لمن يحملها ويمسكها : دوّاء ، ويقال لها : الدواة والرقيم والنون .

ويقال: هو القلم والمِزْبر بالزاى والمِذْبر من زبرت وذبرت، أى كتبت ، ومَنْ فرّق بينهما قال : زبرتُ بالزاى ، أى كتبت ، وذبرت ، أى قرأت . وسمِّىَ قلماً لأنه قلَم ، أى قطع وسوّى ، كما يقلّم الظفر ، وكلّ عود قطع وحُزّ رأسه وأُعلم بعلامة فهو قلم ، قال الله تعالى : ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾[2] ، وكانت سهاماً فيها أسماؤهم مكتوبة . ويقال للذى يُقلم به : مِقْلم ، وللذى يُبرى به : مبرًى ، ولِمَا سَقَط عن البَرْى والتّقليم : القُلامة والبُراية . وقيل لأعرابىّ : ما القلم ؟ ففكّر ساعة ، وجعل يقلّب أصابعه ، ثم قال : لا أدرى ؛ فقيل له : توهّمْه فى نفسك ، قال : هو عود قُلِّم من جوانبه كتقليم الأظفار . ويقال لعُقَده : الكعوب ، واحدها كَعْب ، ولما بينها الأنابيب ، واحدها أُنبوب ، ويستعملان فى الرّمح ، وفى كلّ عود فيه عُقَد ، والعقدة التى تشينه تسمّى الأُبنةُ وجمعها أُبَن ، فإن كان فى العود أو القصبة تأكُّل ، قيل فيه : قادح ونقَد ، ويقال لباطنه : الشحمة ، ولظاهره اللِّيط ، فإن قشرت منه قشرة قلت : لَيَّطت من القلم لِيطة ، فإن أخذت شحمته بالسِّكين قيل: شحمته أشحمه ، فإن أفرطت فى أخذها ، قلت : بطّنته تبطيناً فهو مبطَّن ، وحفرته فهو محنور ، فإن تركت شحمته ، قلتَ : أشحمته إشحاماً . ويقال لغشائه الذى عليه : الغلاف واللِّحاء والقشر ، فإذا نزعتها عنه قيل : قشرته ولحوْته وقشوته وسحوْته ،

(١) الاقتضاب ٨٢ .
(٢) آل عمران ٤٤ .

ويقال فى ثلاثتها بالياء ، ووسّقته ونقّحته ، مشدّدان . ويقال لطرفيه اللّذين يكتب بهما : السِّنّان والشّعيرتان ، واحدهما سنّ وشعيرة ، فإذا قطع طرفه وهيِّىء للكتابة قيل : قطّته أقطّه قطًّا ، وصمته أصمه قصماً ، والمِقَطّ بالكسر : مايقطّ عليه ، وبالفتح الموضع الذى يقط من رأسه ، فإن جعلت إحدى سنّيه أطولَ من الأخرى قلت : قلم محرّف ، وقد حرّفته تحريفاً ، فإن سوّيتهما قلت : قلم مبسوط ، فإن سمع له صوت عند الكتابة ، فذلك الصريف والصرير والرشيق ويقال للقَصَب : اليَرَاع والأَباء ، الواحد يَرَاعة وأَباءة ، وقيل : الأباء أطراف القلم ، أى القصب ، ويقال للقطن الذى يوجد فى بطنها : البَيْلَمْ والقيصف والقيسع ، واحدته بَيْلَمة وقيصفة وقَيْسَعة ، فإن كان فى القصب تأكّل قيل فيه : قادح ونقد ، وكذلك العود والسنّ والقَرْن ، فإن كان فيها عِوَج فذلك الدّرء[1] .

قوله: «خذأداتك» ، أى قلمك. وقال ابن طاهر لكاتب له :ألِقْ دواتك ، وأطِلِ سنّ قلمك ، وفرّق بين السطور ، وتوسط بين الحروف .

وقال ابن عبد ربه : ينبغى للكاتب أن يصلح آلته التى لا بدّ له منها ، وأداته التى لا تتمّ صناعته إلا بها ، وهى دواته ، فلينعم ربْيها إصلاحَها ، ثم ليختر من أنابيب القصب أملَّها عُقَدًا ، وأكثفها لحماً ، وأصلبها قشراً ، وأعدلها استواء ، ويجعل لقرطاسه سِكيناً حاداً ليكون عوناً له على بَرْى أقلامه ، ويبريها من ناحية نبات القصب .

واعلم أنّ محل القلم من الكاتب محل الرّمح من الفارس ، نظم أحد الشعراء فقال :

يُمْسِك الفارسُ رُمحاً بيدٍ وأنا أمسك فيها قَصَبَهْ
فكلانا فارسٌ فى شأنهِ إنما الأقلامُ رُمْحُ الكَتَبَهْ

(١) نظر المؤلف فى هذا الفصل إلى ما أورده ابن السيد البطليوسى فى كتاب الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب لابن قتيبة ص ٨٢ ـ ٨٧ مع تصرف واختصار .

وقال أبو الفتح البُستى :

إن هزّ أقلامه يوماً ليُعمِلَها ... أنساكَ كلّ كَمِيٍّ هزّ عامِلَهُ[1]

وإن أقرّ على رَقّ أناملَه ... أقرّ بالرِّقِّ كتّابُ الأنام لَهُ

رأى جعفر بن يحيى خطًّا فاستحسنه ، فقال : الخطّ خَيْط الحكمة ، يُنظم فيه منثورها ، وتُفصّل فيه شذورها .

ومن كتاب جعفر بن يحيى إلى محمد بن الليث : أما بعد ، فليكنْ قَلَمُك محرَّفاً ، لامتيناً ولا رقيقاً ، ضيّق القلب . فابْرِه بريّاً مستوياً كمنقار الحمامة ، أعطِفْ بطنه ، ورقّقْ شفرتيْه ، ولْيكُن قِرْطاسك رقيقاً مستوىَ النَّسْج ، مخرَج السَّحَاءة[2] ، مستوياً من أحد الطرفين إلى آخره ، فليست تستقيم السّطور إلا فيما كان كذلك ، وليكُنْ أكثر مَطّك فى أطراف القرطاس الذى فيه يسارك ، وأقلّه فى الوسط ، ولا تمطّ فى الطرف الآخر ، والمطّ نصف الخطّ ، ولا يقوى عليه إلا العاقل .

قال العتابىّ : سألنى الأصمعىّ فى دارالرشيد : أىّ الأنابيب للكتابة أصْلَح ، وعليها أصْبر ؟ فقلت له : ما نَشِف بالهجير ماؤه ، وستره من تلويحه غِشاؤه ، من الدّرّية الظهور ، النيّرة القشور ، الفِضّيّة الكسور ؛ قال : فأىّ نوع من البرْى أصوب وأكتب ؟ فقلت له : البريّة المستوية القَطّة ، التى عن يمين سننها قُرنة[3] ، تأمن معها المجّة عند المدّة والمطّة ، للهواء فى شِقّها صفيق[4] ، وللرّيح فى جوفها خريق ، والمداد فى خرطومها رقيق . قال العتابىّ : فبقى الأصمعىّ شاخصاً إلىّ لا يحيرُ جواباً[5] .

---

(١) يتيمة الدهر ٤ : ٢٩١

(٢) السحاءة : القشرة .

(٣) القرنة : الطرف المائل من كل شىء

(٤) العقد : « فيتق »

(٥) العقد ٤ : ١٧٣

وقال الحسن بن وهب : يحتاج الكاتب إلى خلال : جودة بَرْى القلم ، وإطالة جَلْفته ، وتحريف قَطّته ، وحسن التأتّى لامتطاء الأنامل ، وإرسال المدّة بعد إشباع الحروف ، واستواء الرسوم ، وحلاوة المقاطع .

وقال بعض الكتّاب : عَطِّرُوا دفاترَكم بجيّد الحبر ، فإنّ الكتب غوانٍ والحبر غوالٍ .

وقال بعض الكتاب أيضاً :

وما رَوْض الربيع وقد زهاه ... ندَى الأسْحارِ يأرَج بالغَداةِ
بأضوعَ أو بأسطعَ من نسيمٍ ... تؤدّيه الأفاوِهُ من دَوَاةِ

كأنّ هذا من قول الآخر :

دعىّ فى الكتابه ليس منها ... له فِكرٌ يُعَدّ ولا بديهُ (١)
كأنّ دواته من رِيقِ فيه ... تُلاقُ ، فريحُها أبداً كريهُ

ونظر جعفر بن محمد إلى فتى على ثيابه أثر مداد ، وهو يستره ، فقال له :

لا تجزعنّ من المِداد فإنه ... عِطْر الرجال وحِلْية الكُتّابِ

ولبعضهم يهجو كاتباً :

حمارٌ فى الكتابة يدّعيها ... كدعوَى آل حربٍ فى زيادِ
فدعْ عنك الكتابةَ لستَ منها ... ولو لطّخت نفسك بالمدادِ

وقال كُشاجم لورّاق يدّعى الكتابة :

وزعَمْتَ أنّك فى الكتابة مدركٌ ... شأوِى، فقلت: رماحنا أقلامُ (٢)
هيهاتَ تلك صناعة ممزوجَةٌ ... فيها ضياءٌ واضحٌ وظلامُ

(١) أدب الكتاب للصولى ١٠١
(٢) ديوانه ١٦٠ وفيه : « يريق دماءنا »

هذا الحديد سلاح أبطالِ الوغى وبه يَهُجّ دماءنا الحجّامُ

وقال أبو العيناء : كنتُ عند إبراهيم بن العباس ، وهو يكتب كتاباً ، فنقطت من القلم نقطة مفسدة ، فمسحها بكمّه ؛ فتعجّبت ، فقال : لا تعجَبْ ، المال فرع والقلم أصل ، والأصل أحوج إلى المراعاة من الفرع ، وبهذا السواد جاءت هذه الثياب ، ثم أطرق قليلاً وقال :

إذا ما الفِكْرُ وَلَّدَ حسن لفظٍ وأسلَمَه الوجُودُ إلى العِيانِ
ووشّاه فنمنمه جوادٌ فصيحٌ فى المقالِ بلا لِسانِ
ترى حُلل البَيان منشّراتٍ تجلّى بينها صُور المعانِي

وكتب سليمان بن وهب بقلم صلْب ، فاعتمد عليه اعتماداً شديداً ، فصرّ القلم فى يده ، فأنشد :

إذا ما التقينا وانتضينا صوارماً يكاد يُصمّ السامعين صريرُها
تساقط فى القِرْطاس منها بدائعٌ كمثل اللآلى نظمها ونثيرُها
تقودأبيّات البيان بفطنةٍ تكشّف عن وجه البلاغة نورُها
تظلّ المنايا والعطايا شوارعاً تدور بما شئنا وتمضى أمورُها
إذاماخطوب الدهرأرْخَتْستورَها تجلّت بنا عما يسرّ ستورُها

وأتى رجل وكيعاً ، فقال : رجل يمتّ إليك بحرمة ! فقال له : وماحُرمتك ؟ قال له : كنتَ تكتبَ بمحبرتى عند الأعمش . فوثب وكيع إلى منزله ، ثم أخرج منه دنانير لنفقته ، وقال له : اعذرنى فما أملك غيرها ، ودنمها إليه .

وقال أبو الحسن بن لبّال فى محبرة آبنوس :

وخديمة للعلْم فى أحشائِها كلَفٌ بجمع حلاله وحرامِه
لبِست رداء اللّيل ثم توشّحت بنجومه وتتوّجَتْ بهلالِهِ

وحدثنى عن شيخى الفقيه أبى عبدالله بن زَرْقون ابنُه الفقيه أبو الحسين ، قال : حدّثنى أبى أنه كان بسَبْتة أيام الشبيبة والطلب ، فى مجلس جمع من طلبة الأدب ، فتعرّض لهم رجل بمِحْبَرة صنعها ، وأراد أن يقصِد بها الوالى على حسنها ، وكانت محبرة آبنوس بحلية صفراء مذهبَة ، فأطرقوا يروّون ، فبادرهم أبو الطالب ابن أبى ركب فقال :

جاءتك من غُرَرِ العلا زِنجيَّـةٌ ... فى حُلَّةٍ من حِلْيةٍ تتبختَرُ
سوداء صفراء الحلىّ كأنَّهـا ... ليـــل تُطرِّزه نجوم تزهَرُ

فاستحسنهما من حضر ، ورأوا أنه قد أربى على الغاية فيما عنه صدر ، فكتبا للرجل فى رقعة ، فبعد ما سار بها قليلا ، رجع فأبرز منها قلم صُفْرٍ مذهباً ، ورغب أن يضمّن ذكره فى منظوم يضاف إلى البيتين ، فأطرقوا يروّون فى ذلك ، فبادرهم أبو طالب المذكور فقال :

كَمَلَت بأصغرَ من نجارِ حُلِيِّهـا ... تخفيه أحياناً ، وحينا يظهرُ
خرسان إلا حينَ يَرْضع ثديهـا ... فتراه ينطق ما يشاء ويذكُرُ

وقال آخر يصف دواة وأقلاما :

قَـــدْ بعثنا إليك أمّ العطايا ... والمنايا زنجيَّـــة الأحْسَـابِ
فى حشاها من غير حَرْبٍ حِرَابٌ ... وهى أمْضَى من نَافِذَاتِ الحِرَابِ

وأحسن ما قيل فى القلم قول حبيب يصف قلم محمد بن عبد الملك الزيّات :

لَكَ القلمُ الأعلى الّذى بسنانِهِ ... تُصاب من المرء الكُلَى والمفَاصِلُ (١)
له الجـــلَوات اللاء لولا نجيُّها ... لَمـَا احتفلتْ للمالكِ تلكَ المَحافِلُ
لُعاب الأفاعِى القاتلات لعـابُه ... وأرْيُ الجَنى اشتارتْه أيدٍ عَوَاسِلُ (٢)

(١) ديوانه ٢٥٧ ، وشباة القلم : حده .
(٢) الأرى : العسل .

لهديمةٌ طلٌّ ، ولكنّ وقعها بآثاره فى الشرق والغرب وَابِلُ[1]
فصيحٌ إن استنطقتَه وهْو راكب وأعجمُ إن خاطبتَه وهْو رَاجِلُ
إذا ما امتطى الخمسَ اللّطاف وأفرغت
عليه شِعاب الفكر وهى حَوافِلُ
أطاعتْه أطرافُ القنا وتقوّضَتْ لنجواه تقويضَ الخيامِ الجحافلُ
إذا استغزر الذّهن الذكىّ وأقبلتْ أعاليه فى القِرْطَاس وهى أسَافِلُ
وقد رفدته الخِنصران وسدّدت ثلاث نواحِيه الثّلاثُ الأنَامِلُ
رأيتَ جليلاً شأنُه وهومرهَفٌ ضنًى ، وسمينًا خطبُه وهو ناحِلُ

وقال أبو الفتح البستى :

إذا أقسم الأبطالُ يومًا بسيفهمْ وعدّوه مما يكسب المجدَ والكَرَمْ[2]
كفى قلم الكتاب مجداً ورفعةً مدى الدهر أنّ الله أقسم بالقَلَمْ

وقال البحترىّ :

تعنو له وزراء الملك خاضعةً وعادةُ السَّيْفِ أن يستخدِمَ القَلَمَا[3]

وقال أبو العباس التنوخىّ :

إن يخدم القلمُ السّيفَ الّذى خضعت
له الرقابُ ودانت خـــوفَه الامَمُ
فالموتُ والموت لا شىءٌ يقابِلُهُ ما زال يتبع ما يجرى به القَلَمُ
بذا قضى الله للأقلام مُذْ بُرِيَتْ أنَّ السيوف لها مذ أُرْهِفتْ خَدَمُ

---

(١) الطل : المطر القليل ، والوابل : المطر الكثير .
(٢) الظرائف ٢٢ (٣) ديوانه ٢٠٤٨

وناقضه أبو الطيب المتنبي فقال :

حتى رجعتُ وأقلامي قوائلُ لي : المجد للسيف ليس المجد للقلمِ (١)
اكتب بنا أبداً بعد الكتاب به فإنّما نحن للأسْياف كالخَدَمِ

وقال الصولىّ : فاخر صاحب سيف صاحبَ قلم، فقال صاحب القلم : أنا أكتب بلا غَرَر، وأنت تقتل على خَطَر ، فقال صاحب السيفَ : القلم خادم السَّيف إن تَمّ مِدادُه ، وإلا فإلى السيف معادُه .

قال الصولىّ : وقال بعض اليونانيين : الدين والدنيا تحت شيئين : سيف وقلم ، والسيف تحت القلم .

وفى ذلك يقول جرير النّميرىّ :

أتحقِرنى ولستَ لذاك أهلاً وتُدْنى الأصغرين من الخِوَانِ
جهابذةٌ وكتّابٌ وليسوا بفرسان الكتيبة والطِّعَانِ
ستذكرنى وتعرِفُنى إذا ما تلاقَى الحلْقتان من البِطَانِ

وقال كشاجم :

هنيئاً لأصحابِ السيوف بطالةٌ تقضّى بها أيامهم فى التنعُّمِ
وكم فيهمُ من دائم الأمر لم يرعْ بحرْب ولم يَنْهَدْ لقِرْن مصمِّمِ
وكلّ ذوى الأقلام فى كلّ ساعة سيوفهم ليست تجفّ من الدَّمِ

وقال آخر :

قوم إذا أخذوا الأقلام من قصبٍ ثم استمدّوا بها ماء المنيّاتِ
نالوا بها من أعاديهم وإن بعدوا مَالاَ ينالُ بحدّ المشرفيّاتِ

وقال البحترىّ يصف كلام الحسن بن وهب وأقلامه :

(١) ديوانه ٤ : ١٥٩ ، ١٦٠ .

وإذا تألّق فى العيون كلامه الـ مَحْمودُ خِلْتَ لسانه من عضْبِهِ[1]
وإذا دجتْ أقلامه ثم انتحتْ برَقت مصابيح الدُّجَى فى كُتْبِهِ
فاللفظ يقرب فهمه فى بُعـدِه منّا ، ويبعُد نيْلُهُ من قُرْبِهِ
حِكَمٌ ، فسائحها خلال بنانِهِ متدفِّق ، وقليبُها فى قَلْبِهِ
فكأنّها والدّمع معقودٌ لها شخص الحبيب بدا لعين مُحِبِّهِ

وقال علىّ بن الجهم فى رقعة جاءته بخط جارية :

ما رقعة جاءتك مثنيّةً كأنّها خَدٌّ على خَدٍّ[2]
نَبْذُ سوادٍ فى بياضٍ كما[3] ذُرّ فَتيتُ المسْكِ فى الوَرْدِ
ساهمة الأسطار مصروفةٌ عن وجهة الهَزْلِ إلى الجِدِّ
يا كاتباً أسامنى عَتْبُه إليه ، حسبى منك ما عِنْدِى

وقال البحترى فى ابن الزيات :

قد تَصَرَّفْتَ فى الكتابة حتّى عطَّلَ الناسُ ذكرَ عَبْدِ الحميدِ[4]
فى نظامٍ من البلاغَةِ ما شَكّ أمرؤ أنّه نظامُ فريدِ
وبديع كأنه الزّهر الضا حك فى رَوْنَقِ الرّبيعِ الجديدِ
ما أعيرت منه بطونُ القراطيـ ـس وما حملت ظهورُ البَريدِ
حُزْنَ مستعملَ الكلامِ اختياراً وتجنّبْنَ ظُلمة التّعقيدِ
كالعذارَى غَدَوْنَ فى الْحُلَلِ الصّفْـ ـرِ إذا رُحْن فى الخطوب السُّودِ

قال المأمون لمحمد بن داود : إن شاركناك فى اللّفظ نقد تاركناك فى الخطّ ، فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنّ من أعظم آيات النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه أدّى عن الله تعالى رسالته ، وحفظ وحيَه ، وهو أُمىّ لا يعرف من فنون الخطّ فنًّا ،

(١) ديوانه ١٦٤
(٢) ديوانه ٩٢
(٣) النبذ : الشىء القليل .
(٤) ديوانه ٦٣٦ .

ولا يقرأ من حروفها حرفاً ، وبقى عمود ذلك فى أهله ، فهم يشرفون بالشَّرَف الكريم فى نقص الخطّ ، كما يشرف غيرهم بزيادته ، وإنّ أمير المؤمنين أخصّ الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم ، والوارث لموضعه ، والمتقلّد لنهيه ولأمره ، فتعلّقت به المشابهة الجليلة ، وتناهت إليه الفضيلة . فقال المأمون : يا محمد ، لقد تركتنى لا آسى على الكتابة ولو كنت أميًّا .

قد ذكرنا من آلات الكتابة نثراً ونظماً ما فيه كفاية وفى السادسة والعشرين من النظم فى أوصاف الكتّاب ما يستحسن وينتظم بما أوردنا هنا .

وإنما أخرج الحريرىّ رسالته الخَيْناء من هذه الأوصاف المنظومة فى الرسائل التى قدّمناها آنفاً لما ذكره من أنّ جميع الكتّاب قطب لإنشائها وتاب ، لما فيها من لزوم نقط لفظة وترك أخرى ؛ وهى على ما بها من التكلّف ، رائقة المعانى ، أنيقة المبانى ، ولو غيره تعاطاها لأظلمت معانيها ، وتداعت مبانيها ، فلله هو ! لقد كان منقاداً له صعب الكلام بأيْسَر مَرَامٍ ! وما هو فى محاولة البلاغة إلا كما قال حبيب فى سليمان بن وهب :

سُرُحٌ نطقه إذا ما استمرَّتْ عقدة العىّ فى لسان الخطيبِ (١)
ومصيب شواكلَ الأمر فيه مشكلاتٌ مُلَكْنَ لُبَّ اللبيبِ
لا معنًّى بكلِّ شىء ولا كلُّ عجيب فى عينهِ بعجيبِ

* * *

الكرمُ ـ ثبَّتَ اللهُ جَيْشَ سُعُودِك ـ يَزِينُ ، واللُّؤْمُ ـ غَضَّ الدَّهْرُ جَفْنَ حَسُودِكَ ـ يَشِين ، وَالأَرْوَعُ يثيبُ ، والمعور يَخيب ، والْحُلاَحِلُ يُضيف ، والماحِلُ يُخيف ، والسَّمْحُ يُغْذِى ، والمَحِكُ يُقْذِى ، وَالْعَطاءُ يُنْجِى ، وَالمِطَالُ يُشجِى ، والدُّعاءُ يقى ، والمدْحُ يُنْقِى ، والْحُرُّ يَجزِى

(١) ديوانه ٣٧ . وفى فيه : « سرح قوله » .

والإلطاطُ يُخزِى، واطِّراحُ ذِى الحُرْمَةِ غَىٌّ، وَمَحْرَمَة بنِى الآمالِ بَغْىٌ، وَمَا ضَنٌّ إلاَّ غبينٌ، وَلاَ غُبِنَ إلاَّ ضنينٌ، ولاَ خَزَن إلاَّ شَقِىٌّ، ولاَ قَبَضَ رَاحَهُ تَقِىٌّ. وَمَا فَتِىءَ وَعْدُكَ يَفِى، وآرَاؤُكَ تَشْفِى، وَهِلالُكَ يُضِى، وحِلْمُكَ يُغْضِى، وآلاؤكَ تُغْنِى، وأَعْدَاؤكَ تُثْنِى، وَحُسَامُكَ يُفْنِى، وسُودَدُكَ يَبْنِى، ومُواصِلُكَ يَجْتَنِى، ومَادِحُكَ يَقْتَنِى، وسَمَاحُكَ يُغيث، وسَماؤكَ تَغيث، وَدَرُّكَ يَفيضُ، ورَدُّكَ يَغيضُ، ومؤمِّلُكَ شيخٌ حكاه فَىْءٌ، ولم يبق لَهُ شَىْء. أمَّكَ بِظَنِّ حِرْصُهُ يَثِبُ، ومَدَحَكَ بِنُخَبٍ مُهُورُها تَجِب، ومَرَامُهُ يُخِفّ، وأواصِرُه تَشِفّ، وإطراؤه يُجْتَذَب، ومَلامُهُ يُجْتَنب، ووراءه صَفَف، مَسَّهُمْ شَظَف؛ وحَصَّهم جَنَف، وعَمَّهُمْ قَشَف، وَهُوَ فى دَمْعٍ يجيب، وَوَلَهٍ يُذيب؛ وَهَمٍّ تضيّف، وَكَمَدٍ نيّف، لمأمُولٍ خَيَّبَ، وإهْمالٍ شيّبَ، وَعَدُوٍّ نَيَّبَ، وَهُدُوٍّ تغيَّبَ، ولمْ يزغ وِدّه فيغضب، ولاَ خَبُث عُودُه فَيُقضَب، ولا نفَث صَدْرُه، فيُنفَض، ولاَ نشزَ وصْلُهُ فيُبْغَض، وَمَا يَقْتَضِى كَرَمُكَ نَبْذَ حُرَمِهِ؛ فبيّضْ أمله، بتخفيف ألمه، ينثُ حَمْدَكَ بَيْنَ عَالِمِه. بقيتَ لإماطةِ شَجَبٍ، وإعطاءِ نَشَبٍ، وَمُدَاوَاةِ شَجَنٍ، ومُرَاعَاةِ يَفَنٍ، موصولاً بخفضٍ، وسُرُورِ غَضّ، مَا غُشِىَ مَعْهَدُ غَنِىّ، أَوْخُشِىَ وَهْمُ غبِىّ، والسلام.

* * *

قوله :«غضّ الدهر جفن حسودك»، يقال : غضّ جفنه، أى سدّ عينيه ، دعاء عليه بالعمَى ، يقول : الكرم يزيّن صاحبه . واللؤم — وهو البخل — يَشينه ويَعيبه ، ثم دعا له بدوام السّعد وثبوته ، وبعمى عين الحسود حتى لا يبصر ماأُعْطِىَ الممدوح من النّعم، فيأخذها بالعين. الأروع: السيدالكريم، وهو الذى قصد،وقيل:الأرْوَع الحديدالنفس ، وقيل : الذى يروعُك بجماله . يُثيب : يُجازى قاصده .والمُعْوِر : البادى العَوْرَة ، وهو الفارس يظهر فى طعنه خلل ، وأراد به الناقص الخلق الكثير السفاهة ، ومن جملة عيوبه البخل حتى يخيب قاصده ، لأنه قابَل به الأرْوَع ، وهو التامّ الجسيم ، الجهير الصوت ، قال الشاعر :

يواخِى لئيمُ النَّاس كلَّ ملأمٍ وينطق بالعَوْرَاءِ مَنْ كان مُعْوِرَا

الُحلاحل : السيّد الذى يحُلّ به الناس كثيراً . يُضيف : يُنزل الأضياف ويكرمهم . والمَاحل:البخيل ، شبِّه بالبلد الماحل ، وهو الجدْب ، فكأنّ الماحل الذى لا يوجد عنده خير ، يقال : أمحل البلد ، وبلد ماحل وذو مَحْل ، مثل لابن وتامر ، والماحل النَّمّام ، يقال :مَحَلَ به إلى السلطان إذا وشَى به ، وهو الذى يُخيف على الحقيقة ، والماحل أيضاً : المخاصم، وقد ماحلتُه وماحَلنى . يُغْذِى: يطعم . والمحِكُ : اللّجوج ، وهو مقابل السَّمْح الخلق . يُقذِى : يجعل فى العين قَذًى ، أى يضرّ قاصده ويؤلمه . يُنجِى:يخلّص صاحبَه من الذمّ ،وتقدّم المِطال . يُنْقِى : يغسل العيب . والإلطاط : الامتناع من فعل الخير ، ويقال : لطّ وألطّ، إذا ذهب ، ولطّ الشىء وألطّه ، إذا ستره . يُخزى : يهين . اطّراح : ترك . ذى الحرْمة ، أى صاحبها،والحرمة مالا يحلّ تركه لـ ـن قصدك فقددخل فى حرمك ، فتركُه ليس من المروءة . غَىّ : فساد وضلال . مَحْرمة : منع . بنى الآمال : أهل الرجل الذين يرجون خيره ويأملونه . بَغْى : ظُلم . ضنّ : بخل . غَبِين : مخدوع فى رأيه . ضنين : بخيل ، يقول : ما يضَنّ بماله من هو سديد.

النظر ولا المصيب الرأى إنما يبخل به مَنْ هِ فاسد النظر مغبون فى رأيه .
خَزن: حبس ماله : قبض راحه: ضمّ كفه على مافيها ، وهذه كناية عن المنع والبخل.
والتقىّ : الذى يقى نفسَه من العذاب بعمله الصالح ، من وقيتُ نفسِى أقِيها ، واختلف فى وزنه فقيل « فعول » وأصلها «وقوى» ، فأبدلوا من الواو تاء لقرب مخرجيهما ، ومن الواو الثانية ياء وأدغموها فى الياء ، وكسروا القاف لتصحّح الياء ، والاختيار أن يكون وزنه « فعيلاً » وأصله « تقّى » ، فأدغموا الياء فى الياء ، ولدليل على صحته جمعهم له على أتقياء ، كولىّ وأولياء ، ومن قال : إنه « فعول » قال : لمّا أشبه « فعيلا » جُمِع جمعه .

قوله : «ما فتىء» ، أى مازال. يفى : يصدق ويكون وفيًّا. آراؤك: جمع رأى. تشفِى : تزيل الهمَّ عن قلب وليّك ، وتبرئ مرضَ قاصدِك من فقره ، يصفه بجودة الرأى وحسن النَّظر فيما يُصلح به أحوال أصحابه وقصاده . هلالك يضى : يصفه بطلاقة الوجه وإضاءته عند السؤال ، قال زهير :

تَرَاه إذا ما جئتَه متهلِّلاً كأنّك تعطيه الذى أنت سائلُه(١)

وكما قال أبو بكر فى الطّلاقة :

وإذا نظرتَ إلى أسرّة وجهه برقتْ كبرق العارض المتهلّلِ

خلافاً لسيِّىء الخلُق الذى يقطّب وجهَه عند اللقاء ، واللئيم الذى إذا سئل انزوى وتقبّض .

يغضى : يسمح . آلاؤك : نعمك . أعداؤك تُثنى : يقول لكثرة المادحين لك والناشرين لفضلك ، لم يمكن أعداؤك وحسّادك ذمّك لتكذيب الناس إياهم ، فصاروا يثنون عليك مع من يثنى ؛ ويحكى أنّ أعرابيًّا استضاف حاتمًا ،

(١) ديوانه ١٤٢ .

فلم يُنزله ، فبات جائعاً مقروراً ، فلما كان فى السَّحر ركب راحلته ، وانصرف ، فتقدّمه حاتم ، فلماخرج من بين البيوت لقيه متنكّراً ، فقال له : من كان أبا مثواك البارحة ؟ قال: حاتم ، قال : فكيف كان مبيتك عنده ؟ قال : خيرَ مبيت، نحرَ لى ناقةً فأطعمنى لحما عبيطاً ، وأسقانى الخمر ، وعلف راحلتى ، وسرتُ من عنده بخير حال . فقال له : أنا حاتم ، والله لا تبرحُ حتى ترى ما وصفت ، فردّه وقال له : ما حملك على الكذب ؟ فقال له الأعرابىّ : إنّ الناس كلَّهم يثنون عليك بالجود ، ولو ذكرت شرًّا كنت أكذب ، فرجعت مضطرًّا إلى قولهم ، إبقاء على نفسى لا عليك . وقد تقدّم قول البحترىّ فى هذا المعنى :

أأشكو نداه بعد ما وسع الوَرَى ومَنْ ذا يذمُّ الغَيْثَ إلا مُذَمَّمُ[1] !

وقال حبيب :

فإن أنا لم يحمدك عَنِّىَ صاغراً عدوّك فاعلم أننى غير حامِدِ[2]
بسبَّاقة تنساق من غير سائقٍ وتنقاد فى الآناق من غير قائِدِ
أفادت صديقاً من عدوّ وصيرّت[3] أقاربَ دنيا من رجالٍ أباعِدِ
ومحْلَفة لمّا تَرِدْ أُذنَ سامع فتصدر إلاّ عن يمين وشاهِدِ

وهذه القصيدة من كلامه يمدح بها محمد بن الهيثم ، يقول : يسمع عدوّك إطنابى فى مدحك فيمدحك صاغراً ، فكيف وليّك! فأمدحك بقصيدة تقطع الأرض ، ليست بإبل تُساق ، ولا بخيْل تقاد ، فتردّ العدوّ صديقاً ، والبعيد قريباً ، ولا

---

(١) ديوانه ١٩٨٠
(٢) ديوانه ١١٩ ، ١٢٠
(٣) ط : « وعاودت »

يسمعها أحد إلا ويحلف أنه لم يسمع مثلها ، فيشهد له بالصدق .

قوله :« وسوددك يَبْنِي »، أى يرفع لك مجداً وشرفاً . حسامك يفنى ، أى سيفك يقطع ويفنى أعداءك . مواصلك يجتنى ، أى مَنْ زارك وواصلَك اجتنى نعمتك ومواهبك . يقتنى ، أى يكتسب . سماؤك تَغيث ، أى تأتى بالغيث وهو المطر فيستغيث الناس به من الجدب . سماحك يُغيث، أى جودك وحسن خلقك يفرّج كُرَب المهموم، وتقول : غوّث الرجل، أى قال : واغوثاه ، وأغثته أغيثه ، إذا فرّجت عنه ما يشتكى منه . درّك يفيض: عطاؤك يشمل ، أى لبنُك يملأ الإناء ويفيض عليه، يريد أن عطاءه يكثر لسائله . وردّك يَغيض ، أى منعك يذهب الرزق ، وغاض الماء: غار فى الأرض ، مؤمّلك: راجيك . والفىء : الظلّ بعد الزوال ، يريد أن عمره قد أدبر ، فشبّه نفسه بالفىء الذاهب . أمَّك بظنّ ، أى قصَدك برجاء . وحرصه يُثب ، أى طمعه يتزايد فيجعله فى غاية من القلق . نُخَب : مختارة . مهورها : حقوقها ، يقول : مدحك بنخب فى ملئه ، فوجَبَتْ حقوقها لحسنها وجودتها . ومما ينظر إلى هذه المعارضة قول الشاعر :

وخذ حمدِى بجودك ، ذَا بهذا ... كلانا اليوم أربحُ صيرفيِّ
لأُصبح من نوالك فى رياشٍ ... وتصبح من مقالى فى حُلىِّ

وقال آخر :

وحُلَّةٍ كَسَاها ... كالحلىِّ فى التهابهْ
فاستبطنت مديحاً ... كالأرْىِ فى نِصَابِهْ
فراحَ فى ثيابى ... ورُحْتُ فى ثيابِه

وقال ابن شُهيد فى ضيف له :

وما أنفكّ معشوق الثّواء نَمُدُّهُ ... ببشر وترحيب وبَسْط لِسَانِ[1]

إلى أن تشَهَّى البينَ من ذاتِ نفسِه ... وحنَّ إلى الأهلين حنَّة حَانِ

فأتبعتُه ما سدّ خَلَّة حالِهِ ... وأتبعنى ذكراً بكلّ مكَانِ

قوله : «مرامه يخفّ» ، أى مطلبه يسهل عليك .

أواصره : جمع آصرة وهى صلة الرحم ، والأَصْر : المَوضع الحابس ، من قولهم : أصرت فلاناً على الشىء آصِره أَصْراً ، إذا حبسته عليه وعطفته ، ويقال : ماتأصرنى على فلان آصرة ، أى مَاتحبسنى عليه حابسة ، ولا تعطفنى عليه عاطفة . ذكره ابن الأنبارىّ .

وذكر الحريرى فى الدرَّة ، أن اشتقاق أواصر القرابة والعهد من المأصِر ، بكسر الصاد ، ومعناه الوضع الحابس للمارّ عليه ، فسمِّيت أواصر ، لأنها تعطف على مايجب رعايته من المودة والرحم . قال : وحكى عُبَيد الله بن عبد الله ابن طاهر ، قال : اجتمع عندنا أبو نصر أحمد بن حاتم وابن الأعرابىّ فتحاذثا[2] ، فحكى أبو نصر أن أبا الأسود دخل على عبيد الله بن زياد ، وعليه ثياب رثّة ، فكساه ثياباً جديدة من غير أن يسأله ، أو استكساه ، فخرج وهو يقول :

كساكَ ولم تستكسِه فحمِدتَه ... فتًى ماجد يعطى الجزيل وياصِرُ

وإنّ أحقّ الناس إن كنتَ مادحاً ... بمدحك من أعطاكَ والعِرْض وافرُ

فقال ابنُ الأعرابىّ : « وناصر » بالنون ، فقال له أبو نصر : دعنى يانعذا وياصرى وعليك بناصرك ؛ يريد : « ياصر » يعطف[3] .

(١) الذخيرة لابن بسام ١ : ٢٦٧

(٢) الدرة : « فتجاذبا الحديث » .

(٣) درة الغواص ٧١

قوله :«تشفّ» ،أى تزيد وتفضل غيرها ، يقول :إن الأسباب التى توجب عطفك وحنانك علىّ كثيرة منها الشَّيَخ[1] والضعف وكثرة العيال وجودة المدح،والعهود السابقة التى بينى وبينك . إطراؤه يُجتذب ، أى مدحه يتجاذبه الناس ويحرصون على تحصيله لجودته ، وأصل الإطراء المدح فى الوجه ، فهو بمشاهدته كأنه مدْح طرئ ، أو ظهرت عليه طراوة . ملامه يُجتنب : ذمّه يخاف ويبعد منه ، فيرشَى عليه ، يقول : إنّ الذى رجاك شيخ مسنٌّ فقير قصَدك بيقين لأنك من أهل الكرم ، فطمعُه لذلك يزيد لما ارتجى من معروفك، وأهدى إليك من مدائحه عرائس وجبت عليك حقوقها ، ومرامه سهل عليك ، ولديك عُلَق تقوم مقام القرابة ، وتزيد على ذلك ، وله مدح يرغَبُ فيه وذم يرهِب منه .

ووراءه ضَفف ، أى خلفه كثرة عيال ،من ضفّ الطعام ضَفًّا إذا كثر القوم عليه ، وضفّ العيش اشتدّ . والشَّظف :سوء الحال.حصّهم:عرّاهم ونتف ريشَهم . جنَف : ميل الدهر عليهم. قَشَف :بؤس عيش. يجيب :يساعد . وَلَه : همّ وحيرة . يذيب : يُذهب اللحم . تضيّف:نزل به ومال إليه . كمد: حزن قارب الموت. تيف : زاد على المعهود . لمأمول،أى لمقصود مرجوّ. إهمال : تضييع وتسييب . نيّب: عضّ بأسنانه . وهدوّ تغيّب،أى سكون وأمن زال عنه . يزغ : يمل . نفث صدره ، أى تكلم بشرّ،ونفث :بَرَق من داء فى صدره ومنه المثل:لابدّ للمصدور أن ينفُث. ينفض،أى يضرب ويبعد . نَشَز : ارتفع وزال. يقتضى:يتضمّن ويلزم . نبْذ:طرح. حُرَمه : جمع حُرْمة . بيّض أمله ، أى أسعد رجاءه ، ورُدّه أبيض بعطائك الذى يخنف أمله ،ويزيل وجعه . ينثّ:ينشر.عاله : ناسه وأهل زمانه . بَقِيت : عشت وطال بقاؤك . إماطة شجب: إزالة هلاك وتنحيته . نشب: مال . شجن: حزن ، والشَّجن أيضاً الحاجة . مراعاة : حفظ . يَفَن : شيخ كبير . موصولاً ؛ أى

(١) الشيخ ، محركة ، مصدر شاخ يشيخ ، مثل الشيخوخة .

متصلاً . بخفض : عيش هنيء . غضّ : ناعم جديد . غُشِيَ : قُصِد ودخل . معهد : موضع يعهد به جلوسه . وهم غبيّ : غلط جاهل .

* * *

فَلمَّا فرَغ مِنْ إمْلاءِ رِسَالتِهِ ، وجَلَّى فى هَيْجَاء الْبَلاغةِ عَنْ بَسَالَتِهِ ، أَرْضَتْهُ الجماعَةُ فِعْلاً وقَوْلاً ، وَأَوْسَعَتْهُ حفاوَةً وطَوْلاً . ثُمَّ سُئِلَ مِنْ أىِّ الشُّعُوبِ نِجَارُه ، وفى أىّ الشِّعَابِ وِجارُهُ ، فقَالَ :

غَسَّانُ أَسْرَتِىَ الصَّمِيمَهْ ... وَسَرُوجُ تُرْبَتِىَ الْقَدِيمَهْ
فالبيتُ مِثْلُ الشَّمْسِ إشْـ ... ـراقاً ومَنْزِلَةً جَسِيمَهْ
والرَّبْعُ كَالفِرْدوسِ مطـ ... ـيَّبَةً ومَنْزَهَةً وقِيمَهْ
وَاهاً لِعَيْش كانَ لِى ... فيهَا ولَذَّاتٍ عَمِيمَهْ
أيَّامَ أَسْحَبُ مُطْرَفِى ... فى رَوْضِهَا مَاضِى الْعَزِيمَهْ
أخْتَالُ فى بُرْدِ الشَّبَا ... بِ وأجْتَلِى النِّعَمَ الْوَسِيمَهْ
لا أتَّقِى نُوَبَ الزَّما ... نِ ولاَ حَوَادِثَهُ المُلِيمَهْ
فَلَوْ أنَّ كرْباً مُتْلِفٌ ... لَتَلِفْتُ مِنْ كُرَبِى المقِيمَهْ
أَوْ يُفْتَدَى عَيشٌ مَضَى ... لَفَدَتْهُ مُهْجَتِىَ الكَرِيمَهْ
فالموتُ خيرٌ لِلْفَتَى ... مِنْ عَيْشِهِ عَيْش البَهِيمَهْ
تقتَادُهُ بُرَةُ الصَّغَا ... ر إلى العظِيمَةِ والْهَضِيمَهْ

ويَرَى السِّباعَ تَنوشُها أيدى الضِّباعِ المستضيمَهْ
والذَّنْبُ للأيام لَوْ لا شؤمُها لم تَغْبُ شِيمَهْ
ولو استقامَتْ كانتِ الـ أحوالُ فيها مُستقيمَهْ

* * *

قوله : «إملاء رسالته» ، أى إلقاؤها عليه ليكتبها. جلّى : كشف. الهيجاء : الحرب ، وهى من الهيج وهو الحركة والاضطراب . بسالته : شجاعته . أوسعته : كثّرت له . حفاوة : إكرام . والطَّوْل : الإنعام . الشّعوب : القبائل ، واحدها شَعْب ، بفتح الشين وهو الأب الكبير . ثعلب ، الشّعب : الأب الأكبر الذى ينتهون إليه والقبيلة دونه . نجاره : أصله . الشِّعاب : الطرق فى الجبال . وِجَاره : جُحره ، أراد بَيْتَه ، لأنهم سألوه من أىّ قبيلة هو ، وعن مسكنه فى أىّ موضع هو .

قوله : «غسان أسرتى» : أى هذه القبيلة أصلى وقرابتى . الصميمة : الصريحة الخالصة . تربتى . بلدتى . إشراقاً : ضياء ونقاء من العيب . جسيمة : عظيمة . الفردوس : الجنّة ، سُمِّيَتْ بذلك لعرائشها ، والفردوس : المعرّش من الكرم . عطيبة ، أى سروج مثل الجنة فى طيب الهواء ، وفى نزهتها وحسنها ، وفى قدرها ، وأراد بالبيت غَسّان ، وبالربع سَروج ، أو يريد بيتَه فى غسان فى الشرف كالشمس ، ومنزله فى سَروج كالجنة فى طيبها ونزهتها ، وقد قال فى أخرى :

مَنْ رآها قال مَرْمَى جنّةِ الدنيا سَرُوجُ

ومثل قوله فى البيت مثل الشمس ، قول أبى الطَّمَحان القينىّ :

وإنّى من القوم الذين هُمُ هُمُ إذا مات منهم سيّد قام صاحبُهْ[1]

---

(١) الأبيات فى الكامل للمبرد ١ : ٩٤

نجوم سماء كلّما غار كوكبٌ بدَا كوكب تأوى إليه كواكبُهْ
أضاءتْ لهم أحسابهم ووجوههم دُجى الليل حتّى نظّم الجزع ثاقبه[1]

وقال حسان بن ثابت :

بيض الوجوه مضيئةٌ أحسابهمْ شمّ الأنوف من الطّرازِ الأوّلِ[2]

وزاد عليه فى الإضاءة والإشراق حجيّة بن المضرّب فقال :

أضاءتْ لهم أحسابهمْ فتضاءلَتْ لنورهمُ الشمس المنيرة والبَدْرُ

وزاد عليه أبو الطيب وعلى الناس فى علوّ الهمة وتبعيد منازلها من منازل الكواكب ، حيث يقول :

وعزمةٍ بعثتْها همّةٌ زُحَلٌ مَنْ تحتَها بمكان التّرب من زُحَلِ[3]

وزُحل أرفع من الشمس ومن سائر الكواكب منزلةً ، وهذا من غلوّ المتنبّى الذى يخرج به عن الناس حتى يُعاب ، لأنه لو جعلها مع زُحَل فى منزلة واحدة ، كما جعل الحريرى منزلتَه مع الشمس لكان قد بلَغ النّهاية ، وزاد على غيره ، فلم يكتف بذلك حتى جعلها تعلو على زُحَل ، كما يعلو زُحل على الأرض . ومن هذا الإفراط فى شعره كثير ، وأكثر النقاد يعيبون عليه ؛ وبعد هذا فمعجزاته فى الشعر زاد بها على المتقدّمين والمتأخّرين عند الأكثر فلا يجارى فى كثير منها.

واهًا : تعجُّباً ، كأنه قال : ما أعجب ما كان عيشى بها ! عميمة : كثيرة . أسحب مُطْرَفى : أجرّ ثوبى المعلَم فى طرفه إعجاباً بنفسى. أختال : أمشى الخَيلاء متكبّراً . بُرْد الشباب : ثوب الفتوّة . أجتلى : أنظر . الوسيمة : الحسان . والنّوب والحوادث : النوازل والمصائب ، كلّها بمعنى واحد ، وهى ماينوب الإنسان ، أو يحدث عليه أو ينزل به ، أو يصيبه من البلاء بعد العافية . المليمة:

(١) الجزع ، بالفتح ويكسر : الخرز اليمانى .
(٢) ديوانه ٣٠٨
(٣) لم أجده فى ديوانه ، كما لم أجده فى شعره أبى طالب المتنبى الأندلسى فيما أورده ابن بسام فى الذخيرة وعلى بن سعيد فى المغرب .

التى تأتى بما يُلام عليه . كرَبى المقيمة : همومى الثابتة . مُهجتى : نفسى، وأصلها دم القلب . تقتاده : تسوقه . بُرَة : حَلْقة من صُفْر تجعل فى وترة أنف البعير ، يذلَّل بها . الصَّغَار : الذِّلّة . العظيمة : داهية يُستعظم أمرها . والهضيمة : المحقّرة لشأنه عند الناس ، فيريد بالبهيمة البعير الذى يقاد ويذلَّل بالبُرَة ، وبالعظيمة سؤاله الناس ، وبالهضيمة احتقارهم له إذا سألهم فيردونه خائباً . والسباع هنا : الأسُود . تنوشها : تتناولها وتخدشها .

[الضباع وما قيل فيها]

والضباع : جمع ضَبُع ؛ وهو نوع من سباع الأرض ، وهى مضادّة فى الخِلْقة لسبع الأندلس ، لأنها عظيمة الكَفَل والفخذين رقيقة الصدر ، وهذا السبع أزَلّ[1] عظيم الصدر ، والضبع عظيم البطن ، ولذلك سمى حُضاجرا بالجمع ، والحِضجر : عظيم البطن . والحِضْجر : الوطب الكبير من اللبن ، ويشبّه به العظيم البطن ، وهى عرجاء مثل هذا السبع ، ويضرب بحمقها المثل فيقال : أحمق من ضَبُع ، وأحمق من أمّ عامر وهى كنيتها . ومن حمقها أنّ الصائد يدخل وِجارها فيقول لها : خامرى أمّ عامر ، ومعناه الجئى إلى أقصى مغارك واستترى ، فتتقبّض ، فيقول : أم عامر ليست فى وجارها ، ثم يقول : أبشرى أمّ عامر بكَمَر الرجال ، أبشرى أم عامر بشاة هزلى ، وجرادَةٍ عظْلَى ، فتمدّ يديْها ورجليْها ، فيوثقها ويشدّ عراقيبها بحبال فلا تتحرّك ، ولو شاءت أن تقتله لأمكنها ، ولا يدخل عليها إلا عرياناً ، وإن دخل بثوب قتلته ، ثم يخرج لأصحابه بالحبال ، وهم على فم الوِجار بأسلحتهم ، فيخرجونها بالجرّ من قعر الوِجار ويقتلونها .

ومن حمقها أنّها تترك جِراءها إذا خرجت تلتمس ما تأكل ، فتجد جِراء أخرى قد خرجت أيضاً لذلك ، وتركت جِراءها فترضع أولاد غيرها ، وتترك أولادها ، فربما ضاعت جِراؤها فأكلها الذئب[2] . وقال الشاعر :

(١) الأزل : الخفيف الوركين .

(٢) جمهرة الأمثال ١ : ٤١٦ ، الميدانى ١ : ٢٣٨ .

كَمُرْضِعةٍ أولاد أُخرى وضَيَّعَتْ بنى بطنها ،هذا الضلال عن القَصْدِ

قال أبو زيد : والضباع لا تفترس شيئاً إنما تأكل الجِيَف ، وتنبش القبور عن الموتى ، وربما اجتمعت الجماعة منها على حمار فأكلته ، وليس لها بالنهار كبير عمل ، قال الهذلىّ :

تبيت اللّيل لا يخفى عليها حمارٌ حيث جُرَّ ولا قتيلُ[1]

قوله : « المستضيمة » أى المذلّه .والضيم : الذلّ ؛يضرب المثل لتلاعب الزمان بالناس بالأسود والضباع ، فقال : إنّ الضباع المحتقرة عند الأسود تتناول الأسود بالضرر ، وكذلك الزّمان يرفع الحقير والهجين ويكثر رزقه ، ويضع الرفيع ويقتّر عليه ، ويملّك الهجناء والأراذل الخطط الجسام ، ويجرّع النبلاء والأعيان غُصَصَ الخازى وكئوس الحِمام .

* * *

[نبذ فى أحوال الدهر]

وهذه أحوال مشاهدة تنسب إلى الدهر لوقوعها فيه ، وقدّرها البارى عز وجل اختباراً لعباده ، وليبصّر العقلاء جريان أحكامه فى خلقه، وأنّ الكل تحت قهره ، وأن كلّ إنسان من أهل الحزم والرأى عاجز عن إدراك ما لم يقدَّر له؛ وقال محمد ابن الفضل :

هانت الدّنيا على الله فأعطاها اللّئاما
فهُمُ فيها يعيشُو نَ وَيَلْحَوْنَ الكِرَاما

(١) لساعدة بن جؤية الهذلى ، ديوان الهذليين ١ : ٢١٦ .

وقال المعرىّ فى معنى بيت الحريرىّ :

ومَنْ صَحِبَ اللّيالِى علّمْتُهُ خداع الإلْفِ والقِيل المُحَالا[1]
وغيّرت الخطوب عليه حتى تريه الذرّ يحمِلن الجبالا

وقال يزيد المهلبىّ يرثى المتوكل :

علتْك أسياف من لادونه أحدُ وليس فوقَك إلا الواحدُ الصَّمَدُ[2]
وأصبح الناسُ فوضَى يعجبُون به ليثاً صريعاً تندى حوله النَّقَدُ[3]

وأخذ لفظ بيته من قول حبيب :

مَنْ لم يعاين أبا نصرٍ وقاتلَه فما رأى ضبُعاً فى شدقه سَبُعُ[4]
فيم الشماتة إعلاناً بأسْدٍ وغًى أفناهمُ الصَّبرُ إذ أبقاكم الجزَعُ !

هكذا يُنظم حرّ الكلام ، ويُعتذر لموت الكرام ، وتُنفى عنهم شماتة اللئام. وقد أحسن الاعتذار أيضاً لأبى نصر بأغرب من هذا ، وجعله قاتل نفسه ، إذ لا نظير له فى شجاعته فيقتله ، وإنما قتله أمر الله الذى لايغالَب، كما قال أبو الطيب:

ألا إنّما كانتْ وفاة محمدٍ دليلاً على أن ليس لله غالبُ[5]

وكذلك قوله :

فإن ترم عن عمرٍ توانى به المدَى فخانك حتى لم يجد فيك منزعا[6]
فما كنتَ إلاّ السَّيفَ لاقى ضربيةً فقطّعها حتى انثنى فتقطّعَا

(١) سقط الزند ٨١
(٢) مروج الذهب للمسعودى ٤ : ١٢٤
(٣) النقد : جنس من الغنم.
(٤) ديوانه ٣٧٢
(٥) ديوانه ١ : ١٠٩
(٦) ديوانه ٣٧٤

أى لم يقتل حتى قتل أعداءه ، وأبو نصر هو محمد بن حُميد قتله بابك الخرّميّ ومما قال فيه حبيب — وهو أشجع بيت قيل — قوله :

ونفسٌ تعاف العار حتى كأنّما هو الكفرُ يوم الرَّوْع أودونه الكفرُ[1]
فأثبت فى مستنقَع الموتِ رِجْلَهُ وقال لها: من تحت إخمَصِك الحشرُ

قوله :«الذنب للأيام »،نسب الذنب إليها لوقوع المكروه فيها كما تقدم . تنبُ : ترتفع ، شيمة : طبيعة،أى لولاشؤم الأيام لم تتغير الطباع ، أى لو استقامت هى لاستقامت أحوال الناس فيها ،فكان كل إنسان يدرك منها على قدر منزلته.

* * *

[نبذ وأقوال وحكايات فى ذم الزمان]

ومما قيل فى ذمّ الزمان مما يوافق هذا المعنى ، أنّ عبد الملك بن مروان سأل مسلمة بن يزيد — وكان من المعمّرين —فقال : أىّ الملوك رأيت أكمل ؟ وأىّ الزمان رأيت أفضل ؟ فقال : أمّا الملوك فلم أر إلا حامداً أوذامًّا ، وأمّا الزمان فيرفع أقواماً ويضع أقواماً ،وكلّهم يذمّ زمانه،لأنه يُبلى جديدَهم ، ويفرِّق عديدهم، ويُهرم صغيرهم ، ويُهلك كبيرهم .

أبو جعفر الشيبانىّ قال : أتانا أبو ميّاس الشاعر ، ونحن فى جماعة ، فقال: ما أنتم فيه ؟ قلنا: نذكر الزمان وفساده ، قال : كلاّ إنّ الزمان وعاء ، وما ألقِىَ فيه من خير أو شر كان على حاله ، ثم أنشأ يقول :

أرى حُلَلاً تُصانُ على رجال وأخلاقا تُذَال ولا تُصَانُ
يقولون الزّمان به فسادٌ وهمْ فسدوا وما فسد الزمَانُ

(١) ديوانه ٣٦٩

وقال آخر :

أيا دهر إنْ كنت عاديْتَنَا ... فها قد صنعْتَ بنا ما كَفَا كَا
جعلت الشِّرارَ علينا خِيـــاراً ... وأوْلَيْتَنا بعد وجـــهٍ قَفَا كَا

وقال أبو العتاهية :

كفاكَ عن الدّنيا الذميمة مُخبِرا ... غِنَى باخليها وافتقار كِرَامِهَا
وأن رجال النَّفْع تحت مداسِهَـا ... وأنَّ رجال الضرّ فوقَ سَنَامِهَا

وقال ابن لَنْكك :

يا زمانا ألبس الأحـ ... ـــرارَ ذُلاً ومهانَهْ
لست عنـدى بزمانٍ ... إنَّمـــا أنتَ زَمَانَهْ(١)

وقال ابن الرومىَ :

دهرٌ علاَ قدرُ الوضيـــع به ... وغدا الشَّريف يحطُّه شرفُهْ(٢)
كالبحر يرسبُ فيه لؤلـــؤهُ ... سُفْلاً ويطفو فوقَهُ جِيَفُـــهْ

وكرّره فقال :

قالتْ: علا الناس إلا أنت قلت لَهَا: ... كذاك يَسْفُل فى الميزان مارَجَحَا

وقال آخر :

ربّ يومٍ بكيتُ فيه فلمّا ... صرتُ فى غيره بكيتُ عليْهِ(٣)

---

(١) الزمان : العاهة
(٢) التمثيل والمحاضرة ٢٥٩
(٣) التمثيل والمحاضرة ١٠٦ نهاية الأرب ٣ : ٩٨

وقال آخر :

لم أبك من زمنٍ نكْدٍ أُساء به ... إلاّ بكيتُ عليه حين أفقدُهْ
ولا جزعتُ على مَيْتٍ فُجِعتُ به ... إلا ظللت بسكنى القبر أحسُدُهْ
ولا ذممتُ زماناً فى تقلّبه ... إلاّ وفى زمنى قَدْ صِرْت أُحمَدُهْ

وقال ابن أبى عيزارة :

عتبتُ على سَلْمٍ فلمّا فقدتُه ... وجَرَّبْتُ أقواماً بكيتُ على سَلْمِ
رجعت إليه بعد تفويتِ غيره ... فكان كبُرْءٍ بعد طول من السَّقْمِ

وأنشد المبرّد :

حياة أبى العباس زيدتْ بقربِهِ ... أخا ثقةٍ قاس الأمور وَجَرَّبَا
ونعتب أحياناً عليه ولو قَضَى ... لكنّا على الباقى من الناس أعتَبَا

قال عروة بن الزبير :الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم . أخذه أبو الطيّب فقال :

وشبه الشىء منجذبٌ إليه ... وأشبهُنا بدنيانا الطَّغَامُ[1]
ولو لم يعلُ إلا ذُو محلٍّ ... تعالى الجيشُ وانحطّ القَتَامُ
ودهرٌ ناسُهُ ناسٌ صغارٌ ... وإن كانت لهم جُثَثٌ عِظَامُ
وما أنا منهمُ بالعيشِ فيهمْ ... ولكن مَعْدِنِ الذّهب الرّغَامُ

الطّغام : السفلة .

* * *

ثمّ إن خَبره نمَا إلَى الوالى ، فَملأَ فاه باللآلى ، وَسَامَهُ أنْ يَنْضَوِىَ إلى أَحْشائِهِ ، وَيَلِىَ ديوانَ إنْشائِهِ ، فأَحْسَبَهُ الحِباء ، وَظَلَفَهُ عَنِ الوِلايةِ الإباء .

(١) ديوانه ٤ : ٧١

قال الرَّاوِى : وَكُنتُ عَرَفْتُ عُودَ شجرَتِه ، قَبْلَ إينَاع ثَمَرَتِه ، وَكِدْتُ أُنبِّهُ عَلَى عُلُوِّ قَدْرِه ، قَبْلَ اسْتِنَارَةِ بدْرِه ، فأَوحى إلىَّ بإيماض جَفْنِهِ ، ألاَّ أُجَرِّدَ عَضْبَهُ مِنْ جَفْنِهِ . فلمَّا خَرَجَ بَطِينَ الْخُرْجِ ، وَفَصَلَ فائِزًا بالْفُلْجِ ، شَيَّعْتُهُ قَاضِيًا حَقَّ الرِّعَايَةِ ، وَلاَحِيًا لهُ عَلَى رَفْضِ الْوِلاَيَةِ ، فأَعْرَضَ مُتَبَسِّماً ، وَأَنْشَدَ مُتَرَنِّمًا :

لَجَنُوبُ البلاَدِ مَعَ الْمَتْرَبَهْ أَحَبُّ إِلَىَّ مِنَ الْمَرْتَبَهْ
لِأَنَّ الْوُلاَةَ لَهُمْ نَبْوَةٌ ومَعْتَبَةٌ يا لهَا مَعْتَبَهْ !
وَمَا فِيهِمُ مَنْ يَرُبُّ الصَّنِيعَ وَلاَ مَنْ يُشَيِّدُ ما رتَّبَهْ
فَلاَ يَخْدَعَنْكَ لُمُوعُ السَّرَابِ وَلاَ تأْتِ أَمْرًا إِذَا ما اشْتَبَهْ
فَكَمْ حَالِمٍ سَرَّهُ حِلْمُه وَأَدْرَكَهُ الرَّوعُ لَمَّا انتَبَهْ

* * *

قوله : « نما » ، أى ارتفع ووصل . اللآلى : الدرر . سامه : كلّفه . ينضوى : ينضمّ . وأحشائه : خاصّته . يلى ديوان إنشائه : يتولّى دار كتابته ، أى يكون هوالذى ينشىء الكتبَ، وينسخها الكتّاب وتنفذ إلى البلاد . أحسَبه : كفاه . الحِباء : العطاء . ظَلَفه : منعه . الإباء : الامتناع ، وقد أبيت من كذا ، أى امتنعت منه ؛ ويكنَى به عن نزاهة النفس . عود شجرته ، يريد أنه كان عرفه قبل أن يتكلّم ، وأن يعرّف نفسه . وإيناع الثمرة : إدراكها ونضج ثمرتها . إيماض جفنه : إشارة عينه . عضْبه : سيفه . جفنه : غمْده ، أى

أشار علىّ أن أسترَه . بطين : مملوء . المُدْرِج : وعاء معلوم ، وهذا كقول الشاعر :

يبيتون بالدَّهْنا خِفَافاً عيابُهُمْ ويخرجْن من دَارِين بُجْرَ الحقائبِ[1]

وقد أخذ هذا اللفظ فى مقامة أخرى فقال : حتى آل ذا عيبة خضراء وحقيبة بجراء ، أى مملوءة . وإلى هذا المعنى أشار ، نُصَيب فى قوله :

أقولُ لركبٍ قافلين رأيتهُمْ قَفاذاتَ أوْشَالٍ ومو لاكَ قارِبُ[2]
قفوا خبِّرونى عن سليمان إنَّنِى لمعروفه من أهل وَدَّانَ طالبُ[3]
فعاجُوا فأثنوْا بالذى أنت أهله ولوسكتُوا أثنت عليك الحقائبُ

ثناؤها عليه ، أن بدت للناس مملوءة من معروفه ، فأتى أبو العتاهية فزاد المعنى بياناً بقوله :

إنّ المطايا تشتكيكَ لأنَّهـا قطعتْ إليك سباسباً ورِمَالاَ[4]
فإذا أتينَ بنا أتينَ مخِفَّـةً وإذا رجعن بنـا رَجَعْنَ ثِقَالاَ

قوله:« فصَل» ، أى زال وتنحّى . الفُلْج : الظفر بمـا أراد . الرعاية : حفظ الصحبة . لاحيًا : لائما . رفض : ترك . مترنِّما : مطربا ، أى لما خرج ممتلىء الوعاء ، ظافراً بما أراد ، لُمْتُه على ترك خدمة الأمير التى كلفه ، فأنشد

---

(١) لأعشى همدان ، يهجو لصوصاً ؛ وهو من شواهد ابن عقيل ١/٤٩٨

(٢) البيان والتبيين ١ : ٨٣ . والقارب : طالب الماء . وذات أوشال : موضع بعينه

(٣) ودان : موضع بين مكة والمدينة قرب من الجحفة ؛ قال ياقوت : « وقد أكثر نصيب من ذكرها فى شعره » وأنشد الأبيات .

(٤) ديوانه ٣١٧ .

معتذراً . المتربة ، أى الفقر . المرتبة: المنزلة الرفيعة . وهذا البيت ينظر إلى حكاية الأصمعىّ وقد رُئِى راكباً حماراً فقيل له : أبعد براذين الخلفاء تركب هذا ؟ فقال متمثلاً .

ولما أبتْ إلا طِرافاً بودّهـــا وتكديرها الشَّرْب الذى كان صافيا
شربنا برنقٍ من هواها مكدَّرٍ وليس يعافُ الرَّنْقَ مَنْ كان صاديا

يقول :هذا وأملك دينى ونفسى ، أحبّ إلىّ من ذلك مع ذهابهما[1] .

أطرف الشىء وتطرّفه : استفاده ، وقيل : استجاده .

نبوة : ارتفاع وقلّة ثبات . معتبَة : سخط . يالها : تعجب ، كأنه قال : ياعجبا لها ، ما أشدّها . يربّ: يصلح ويقوّى . الصنيع : الفعل الجميل . يشيّد : يرفع ويتم . رتّبه : بناه وهيّأه . السّراب : ما يظهر نصف النهار كأنه ماء ، اشتبه : أشكل . الحالم : من يرى فى منامه رؤيا ، وقد حلُم يحلَم : والرّوْع : الفزع ، يقول : مثل المترفّه بالخطّه السلطانية كحالم رأى نفسه فى النوم أميراً ، فانتبه فى أيدى أعاديه أسيراً ، أو رأى نفسه بين غزلان ورياحين فانتبه لزئير أسود ولصفير ثعابين ، وكذلك الأمراء إن رفعوا الخديم ببعض إنعامهم كدّروه بتعجيل انتقامهم . ومما يجرى فى هذا النَّمَط قول الشاعر :

إلى الله أشكو كلّ يومٍ وليلةٍ إذا نمت لم أعدم خواطر أوْهَامِ
فإن كان شرًّا كان لاشكّ واقعاً وإن كان خيراً كان أضغاث أحْلَامِ

أخذ المعنى هذا الشاعر من قول أشعب الطماع .قال:رأيت رؤيا نصفها حقّ، ونصفها باطل ، قيل:وكيف ذلك؟قال: كنت أرانى أحمل بَدْرة ؛ فمن ثِقَلها كنت أسلح فى ثيابى ، فانتبهت فإذا السَّلح ولا بَدْرة . قال الفنجديهىّ : ومن أحسن ماسمعت فى هذا المعنى أبيات لطيفة المعانى ظريفة المبانى ، شرّفنى بإنشادها وإملائها علىّ السيّد الأجلّ أبو المظفّر يوسف بن أيوب صلاح الدين بقاهرة مصر لبعضهم:

(١) تاريخ بغداد ١٠ : ٤١٧ .

وزارنى طيف مَنْ أهْوَى على وَجَلٍ مِنَ الوُشَاةِ وداعى الصبح قد هَتَفَا
فكدت أُوقظ مَنْ حولى به فرحاً وكاد يُهتك ستر الحب بى شَغَفَا
ثم انتبهتُ وآمالى تحيبنى نيل المنى فاستحالت غِبْطتى أَسَفَا

ومن مُلح هذا الباب ، أن ابن عَبْدل دخل على بِشْر بن مروان لمَّا وَلِىَ الكوفة ، فقال : أيّها الأمير إنى رأيت رؤيا ، فأذن لى بقصّها ، فقال : قل ، فقال :

أغفيت قبل الصبح نومَ مسهّدٍ فى ساعة ما كنت قبل أنامُها[1]
فرأيت أنك رُعتَنى بوليدةٍ مغنوجةٍ حَسَنٍ علىّ قيامُها
وببَدرةٍ حُملت إلىّ وبغلة شهباء ناجيَةٍ يصلّ لجامُها[2]

فقال له بشر : كلّ شىء رأيته فهو عندك إلا البغلة ، فإنها دهماء ، قال : امرأتى طالق ثلاثاً إن كنت رأيتُها إلا دهماء ولكنى غلطت .

قال البطين الشاعر : قدمت على علىّ بن يحيى الأرمينىّ ، فكتبت إليه :

رأيت فى النوم أنّى راكب فرساً ولى غلام وفى كفّى دنانيرُ
فجئت مستبشراً مستشعِراً فرحاً وعند مثلك لى بالفعل تبشيرُ

فوقّع فى أسفل كتابى : ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴾[3] ، ثم أمر لى بكل ما رأيته فى منامى

---

(١) الخبر والشعر فى ذيل زهر الآداب ١٠١ .
(٢) بعده فى زهر الآداب :
فدعوتُ ربّى أن يثيبك جنّةً عِوَضًا نصيبُك بردُها وسلامُها
(٣) سورة يوسف ٤٤ .

المقالة السابعة وهي البرقعيدية

حكى الحارث بن همام، قال: أزمعتُ الشخوصَ من برقعيد، وقد شمتُ برقَ عيدٍ، فكرهتُ الرحلةَ عن تلك المدينةِ، أو أشهدَ بها يومَ الزينةِ. فلمَّا أظلَّ بفرضه ونفله، وأجلبَ بخيله ورجله، اتبعتُ السُّنَّةَ في لبسِ الجديد، وبرزتُ مع من برزَ للتعبيدِ. وحينَ التأمَ جمعُ المصلَّى وانتظمَ، وأخذَ الزحامُ بالكظم، طلعَ شيخٌ في شملتين، محجوبُ المقلتين، وقد اعتضدَ شبهَ المخلاةِ، واستقادَ العجوزَ كالسِّعلاةِ، فوقفَ وقفةَ مُنهافتٍ، وحيَّا تحيَّةَ خافتٍ. ولمَّا فرغَ من دُعائه، أجالَ خمسةً في وعائه؛ فأبرزَ منه رقاعًا قد كتبنَ بألوان الأصباغ، في أوانِ الفراغ، فناولهنَّ عجوزَهُ الحيزبونَ، وأمرها بأن تتوسَّمَ الزبونَ، فمن آنستْ ندى يديه، ألقتْ منهنَّ ورقةً لديه، فأتاحَ له القدرُ المعتوب، رقعةً فيها مكتوب...

* * *

أزمعت الشخوص، أى عزمت على الخروج. برقعيد: بلد بينه وبين الموصل عشرون فرسخاً. شمت: نظرت.

ويريد ببرق عيد، مقدّمات العيد التى ينظر الناس بها فى أسبابه، سأل رجل

الجُنيد ، لماذا سُمِّى يوم العيد ؟ فقال : لأنّ آدم لمّا خرج من الجنة ، وأُهبط إلى الأرض ، ثم تاب الله عليه ، فردّه إلى الجنة ، كان فى ذلك اليوم ؛ فقيل له يوم عيد ، لأنه أعيد إلى الجنة فيه، قال ابن الأنبارى رحمه الله : معنى يوم العيد ، الذى يعود فيه الفرح والسرور . والعيد عند العرب : الوقت الذى يعود فيه الفرح أو الحزن ، وأصله « العِوْد » لأنه من عاد يعُود ، فلما سُكِّنت الواو وكُسِر ما قبلها قُلِبت ياء ، فصارت من باب ميزان وميقات ، وهما من الوزن والوقت ، وكذلك الياء إذا سكنت ، وانضمّ ما قبلها قلبت واواً مثل مُوسر ومُوقن ، وهما من أيسر وأيقن ، ويقولون فى الجمع مياسر .

المدينة : البلد ، مَنْ أخذها من مَدَن بالمكان يمدُن ، إذا أقام فيه ، فهى « فَعِيلة » والجمع مدائن بالهمز ، والميم أصلية والياء زائدة ، ومن أخذها من دَان يدين ، فالميم زائدة والياء أصلية ، وهى « مفعولة » . يقال : دِنْتُ الرّجل ملكته ، ودنت له أطعت ، ويقال للأمَة مَدِينة لأنها مملوكة ، قال الشاعر :

ربت وربّا فى حَجْرها ابن مدينةٍ ... يظلّ عَلَى مَسحاته يتركّلُ[1]

يعنى عبداً . يوم الزينة : يوم العيد لتزيّن الناس فيه . قوله : « أظل » ، أى قرب ودَنا حتى دخلنا فى ظلّه . بفرضه : يعنى زكاة الفطر . ونفله : يعنى صلاة العيد .

الفنجديهىّ : فَرْض العيد : صدَقة الفطر ، ونَفْل العيد مثل الصلاة والغُسل ولبس الجديد من الثياب .

ابن عمر رضى الله عنهما : فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر من رمضان على الناس صاعاً من تمر أو شعير ، على كل حرّ أو عبد ، ذكر أو أنثى من المسلمين .

ابن عباس رضى الله عنهما : فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة

(١) للاخطل ، ديوانه ٥ . تركل الشىء : دفعه برجله.

الفطر من رمضان لجبر الصيام من اللغو والرّفث طعمة المساكين، فمن أدّاها قبل الصلاة فهى زكاة مقبولة ، ومن أدّاها بعدها فهى صدقة من الصدقات . أجْلب بخيله ورجله ، أى جمع أصحاب الخيل والرّجالة وجاء بهم ، ضرب به المثل لإقباله وتصميمه على المجىء . لبس : لباس ، وجاء فى لبس الجديد حديث عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما على أحدكم أن يكون له ثوبان سوى ثوبىْ مهنته لجمعته ولعيده» .

جابر : كان للنبىّ صلى الله عليه وسلم حُلّة يلبسها فى العيدين ويوم الجمعة . برزت : خرجت . التأم : التحم والتصق . المصلّى : موضع صلاة العيد . الزّحام : الضيق لكثرة الناس . الكظَم : تضييق النفس من شدة الزحام . شملتين : عباءتين ، والشّملة : نوع من الأكسية ، وقيل لها شملة لأنّ صاحبها يشتمل بها ، أى يديرها حواليه . محجوب : مستور . المقلتين : العينين ، أراد أنه أعمى . اعتضد : علّقها فى عضُده . استقاد : جعلها تقوده . السِّعلاة : أنثى الغُول ، وذكَرُها يسمّى الكعنكَع ، وأنشدوا :

* غُولا تراعى شَرِساً كَعَنْكَعَا *

والغول : جنّ مسكنها الصحارى تتراءى للإنسان كأنها إنسان فلا يزال يتبعها حتى يضلّ الطريق فيهلك . قوله : « متهافت» ، أى متساقط لضعفه، وتهافت الشىء فى يدى : تناثر . خافِت : خفىّ الصوت ، وقد خفَت الرجل ، إذا ظهر عليه الضعف من مرض أو جوع أو غير ذلك ، وأصل خفت مات هزالا . فرغ : أتمّ . أجال : مشى وصرّف . خمسه : أصابعه . فى وعائه ، يعنى المخْلاة التى اعْتَضَدَها ، وهى تعلقية يعلّقها السائل فى عنقه أو ذراعه ، ويجعل فيها ما يُعْطَى من الصّدقة . أبرز : أخرج . أوان : وقت . الفراغ : قلّة الشغل . ناولهنّ : أعطاهنّ . الحيزبون : المسنّة القويّة الخلق . تتوسّم : تنظر . الزّبون : المنخدع عن ماله « فَعول» بمعنى «مفعول» ، وهو من ألفاظ أهل المشرِق ، وأراد به الكثير

الصدقة ، آنست : أبصرت . ندًى : كرم . أتاح : ساق . القَدَر المعتوب : الملوم .

لقدْ أصْبَحْتُ موقوذًا بأوجَاعٍ وَأَوْجَالِ
وَمَمْنُوًّا بمحْتَالٍ وَمختَالٍ ومُغتَالِ
وَخَوَّانٍ مِنَ الإخوا نِ قالٍ لى لإ لالِي
وَإِعْمَالٍ مِنَ الْمُمَّا لِ فى تَضْلِيعِ أعْمَالِي
فَكَمْ أصْلَى بأَذْحالٍ وَأَمْحَالٍ وَتَرْحَالِ
وَكَمْ أَخطِرُ فى بالٍ وَلاَ أُخْطَرُ فى بَالِ
فلَيْتَ الدَّهْرَ لَمَّا جا ر أَطْفا لِيَ أَطْفَالِي
فلَوْلا أَنَّ أَشْبالِيَ أَغْلاَلِي وَأَعْلالِي
لَمَا جَهَّزْتُ آمالِي إلى آلٍ وَلاَ وَالى
وَلاَ جَرَّرْتُ أَذْيالِي عَلَى مَسْحَبِ إِذْلاَلى
فَمِحْرَابِيَ أَحْرَى بِي وَأَسْمَالِيَ أَسْمَى لِي
فَهَلْ حُرٌّ يرَى تَخْـــفِيفَ أَثْقَالِي بِمِثْقَالِ
وَيُطفِي حَرَّ بَلْبالِي بِسِرْبالٍ وَسِرْوَالِ !

* * *

قوله : «موقوذاً» ، أى مشرفًا على الموت من شدّة الأوجاع والأوجال ، والموقوذة فى القرآن[1] : المقتولة بالخشب ، والوقْذ : شدة الضرب . أو جال : مخاوف . ممنوًّا : مبتلًى . محتال : ماكر كثير الحيلة . مختال : متكبّر . مغتال : مهلك . خوّان : كثير الخيانة .

ابن عمر رضى الله عنهما : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قلَّما يوجد فى

(١) وهو قوله تعالى فى سورة المائدة ٣ : « والمنخنقة والموقوذة » .

آخر الزمان درهم من حلال ،أو أخ يوثق به » . قال : مبغض . إقلالى : فقرى . إعمال : جِدّ وبحث ، تقول : أعملت الشىء فى الشىء ، إذ جعلتَه يعمل فيه . والعمال : عاملو كلّ شىء . تضليع : إفساد . أعمال : جمع عمل ، يريد أنه مطلوب يبحث على أعماله إذا أتى بها مجموعة فتنقض أعماله وتصير له أضلاعاً بعد اجتماعها ، وذلك فساد لها . ويحتمل أن يكون التّضليع من «ضَلَعُك مع فلان » . أى ميلك معه ، فأعماله تميل عن طرقها فتفسد . وقيل : تضليع الأعمال : تثقيلها ، قال الأزهرىّ رحمه الله : ضلَع الدين. ثقله حتى يميل صاحبه عن الاستواء لثقله ، وفى الحديث : « أعوذ بالله من ضَلَع الدَّين » . أصْلَى : أحترق . أذحال : أحقاد وعداوات . إمحال: فقر . تِرْحال : سَفَر ونقلة من بلد إلى بلد . أخطِر : أمشى متبختراً ، وقد خطر الرجل، إذا أقبل بيديه وأدبر بهما ، وهى مشية الشبّان . بالٍ : خَلَق . ولا أخطُر فى بالٍ : لا أمرّ على بال أحد ولا خاطره . جارَ : مال عن الحق ولم يعدِل . أطفأ : أمات . أطفالى : أولادى ، ومثله : أشبالى .

الفنجديهىّ : يقول : ليت الدّهر لمّا ظلم أولادى ، وجار عليهم أماتنى لأتخلّص ، فإنّ مقاساة الولائد سبب الوقوع فى المصائد . قال ابن عيينة : قلت لصيّاد: أىّ طائر أسرعُ إلى مصايدكم ؟ قال : الذى يزقّ، يعنى الذى يطعم ولده . أغلالى : قيودى . والأعلال : جمع علّ ، وهو القُراد الضخم ، وهو الذى يلصق بأخفاذ الدوابّ ، وهو كثير التشبّث والالتصاق ، لا يُقلَع إلا بجهد ، فيريد بالأغــلال أولاده لأنهم قيوده فلا يسرح بسببهم ، وبالأعلال أنهم قد تعلّقوا به يطلبون ما عنده ، وقال الشاعر يصف ناقته:

* ولو ظلّ فى أوصالها العَلّ يرتقى *

ويقال للقراد : الطِّلْح والفينق والحجير والعَلّ والبُرام والقُرشوم واللّبود فى بعض اللغات . جهّزت : أرسلت . آل : قريب ، وآل : أهل ، أو يكون آل أميرًا وسائسًا ؛ قال عمر رضى الله عنه : أُلْنَا وأُيِلَ علينا ، أى سُسْنا الناس

وساسنا غيرُنا، فيكون على هذا مقلوباً من «آيل» ، كما قيل : سار فى سائر .
مسحب : طريق . يقول : لولا ذلّ الأولاد ما قصدت والياً ، ولا جررت ذيلى فى طريق ذلّ ، ويقال : سحب ذيله سحباً إذا جرّه ، والمسحَب : موضع جرّه ثوبه محرابى : مسجدى . أحرى : أحقّ بى . أسمالى . أثوابى الخَلَقة . أسمى لى : أعزُّ لى وأرفع لقدرى . أثقالى : همومى أو ديونى ، أو كثرة عيالى واحدها ثقَل ، وثَقُلَ الشيء ثقلا ضدّ خَفَّ ، وأثقل الرجل : كثر عياله . بلبالى : حزنى ، والبلبال : وسواس الهموم . سربال : قميص . والسروال : معروف ، وفى الحديث أن امرأة سقطت من على حمار فأعرض النبيّ صلى الله عليه وسلم بوجهه عنها ، فقالوا : إنها متسرولة ، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : «اللهمّ اغفر للمتسرولات من أمّتى ـ ثلاثاً ـ يأيّها الناس اتّخذوا السراويلات فإنها من أستر ثيابكم ، وحضّوا بها نساءكم إذا خرجْنَ » .

ومن مُلَح الصاحب بن عبّاد أن بعض الشعراء[1] كتب له :

أيا مَنْ عطاياه تُعطى الغِنَى ... إلى راحتيْ مَنْ نأى أوْ دَنَا
كَسَوْتَ المقيمينَ والزائرينَ ... كُسًا لم يخلْ مثلها مُمْكِنَا
وحاشية الدار يمشون فى ... ثيابٍ من الخزّ إلاّ أنَا

فقال الصاحب : قرأت فى أخبار مَعْن بن زائدة أن رجلا قال له : احمِلْنى أيُّها الأمير ، فأمر له بناقة وفرس وبغلة وحمار وجارية ، ثم قال له : لو علمت أنّ الله خلق مركوباً غير هذا لحملتُك عليه . وقد أمرنا لك من الخزّ بجبّةٍ وقميص ودُرّاعة وسراويل وعمامة ومنديل ومُطرَف ورداء وكساء وجَوْرب وكيس ، ولو علمنا لباساً غير هذا من الخزّ لأعطيناكه . ثم أمر بإدخاله إلى الخزانة ؛ وصبّ تلك الخلع عليه[2] .

وأخبار الصاحب مستظرفة كثيرة الملح .

(١) هو أبو القاسم الزعفرانى .
(٢) الخبر والشعر فى يتيمة الدهر ٣ : ١٧١ ، مع تصرف واختصار .

قال الحارث بن همام : فلمَّا استعرضتُ حُلَّةَ الأبيات ، تُقْت إلى معرفة مُلْحِمِها ، وراقم عَلَمِها . فناجاني الفكرُ بأنّ الوُصْلَة إليه العَجوز ، وأفتاني بأنّ حُلْوانَ المُعَرِّفِ يجوزُ ؛ فرَصَدْتُها وهي تَسْتَقْرِي الصُّفوفَ صَفًّا صَفًّا ؛ وتَسْتَوْكِفُ الأكُفَّ كَفًّا كَفًّا ، وما إنْ يَنْجَحُ لها عَناء ، ولا يَرْشَحُ على يَدِها إناء . فلمَّا أكْدَى اسْتِعْطافُها ، وكدَّها مَطافُها ، عاذَتْ بالاسْتِرْجاعِ ، ومالَتْ إلى إرْجاعِ الرِّقاعِ ، وأنْساها الشَّيْطانُ ذِكْرَ رُقْعتي ، فلَمْ تَعُجْ إلى بُقْعَتي ، وآبَتْ إلى الشَّيْخِ باكِيَةً للحِرْمانِ ، شاكِيَةً تَحامُلَ الزَّمانِ ؛ فقالَ : إنَّا للهِ ، وأُفَوِّضُ أمري إلى اللهِ ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ باللهِ ! ثُمَّ أنشدَ :

لَمْ يَبْقَ صَافٍ ولا مُصافِ ... وَلا مَعِينٌ وَلا مُعِينُ
وَفِي المَساوِي بدا التَّساوِي ... فَلا أَمِينٌ وَلا ثَمِينُ

* * *

قوله : «ملحمها» ، ناسجها ، ولما جعل الشّعر حُلّة جعل له ناسجاً وراقماً . ناجاني : حدّثني . الوُصلة : الموصّلة . استعرضت ، أي نظرت وعرضتها على نفسي . تُقْت : اشتقت . أفتاني ، أعلمني . الحُلوان : أجر الكُهّان ، وأراد أجرة العرّاف ، وهو الذي يعرّف بالتلائف الملتقطة أربابها ، فيفتكّونها منه بما اتّفقوا عليه ، فذهب مالك أنّ من عرّف اللُّقَطة[1] ، وكان من شأنه أخذ الجُعْل على مثل ذلك ، فله أجرة مثله ، والشافعيّ لا يوجب له حقًّا ؛ سواء كان من شأنه أن يعرّف

(١) اللقطه ، كهمزة : ما التقط .

باللُّقَطة أو لم يكن ، تعب فى ذلك أو لم يتعب ، إلاّ أن يشترط قبل الطلب .

رصدتها : ارتقبتها . تستقرى : تتبع ؛ واقتريْتُ الأرض واستقريتها ، تتبَّعْتُها متأمِّلاً . تستوكف : تستمطر . ينجح : ينفع ويؤثِّر ؛ يقال : نجحت الحاجة إذا انقضتْ ،ونجح طالبها إذا لم يخب ، وأنجح: أشهر ؛ يقول : إنّ مشيها عليهم لم يقضِ حاجتها ولا نفعها . وقصد برشْح الإناء كرمَ الكفّ ؛ يقول : لم يرشح لها كفٌّ بعطيَّة . أكدى : خاب وصعب ، ويقال : أكدى الحافر ، وهو أن يحفر البئر يطلب الماء ، فإذا بلغ إلى الصَّلابة ويئس من الماء ولم يقدر على الحفْر قيل له : أكدى فهو مكدٍ ، والكُدْية هى الصلابة التى يتعذّر حفرها . استعطافها: تليينها القلوب . كدَّها : أتعبها . مطافها : مشيها وطوْفها على الناس ، ويحسن أن ينشد هنا فى حالها لأبى نُوَاس :

إذا لم يُعِنْك الله فيما تريدُه فليس لمخلوقٍ إليه سبيلُ
وإن هو لم يرشدك فى كلِّ مسلكٍ ضللتَ ، ولو أنّ السِّماك دليلُ

غيره :

إذا لم يكن عونٌ من الله للفَتَى فأكثر ما يجنى عليه اجتهادُهُ

عاذت : تعوّذت ولاذت . الاسترجاع ؛ قولهم: إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، وفى حديث أم سلمة رضى الله عنها عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : «ماقال أحدٌ عند المصيبة إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ، اللهمّ أْجِرْنى فى مُصيبتى ، وأخْلِفْ لى خيراً منها ؛ إلا استجيب له » .

إرجاع : ردّ . تعج : تميل وترجع . بقعتى : موضعى . آبت : رجعت . الحرمان : الخيبة والمنع . تحامل : مشقّات ، وتحاملت فى الأمر : تكلّفته على مشقة . أفوّض : أردّ .

لا حول ، أى لا حيلة ، يقال : ما له حيلة ولا حَوْل ، وما له احتيال ولا محتال ، ولا مَحالة ولا مَحِيلة ؛ كلّه بمعنى . ويقال : ما له مَحال بالفتح ، أى حَوْل ، ومِحال بالكسر ، أى مكر . ثعلب :هو من قولهم : مَحِل به ؛ إذا سعى به إلى السلطان وعرّضه للهلاك . ومَحِل به القرآن : شهد عليه بالتّقصير ؛ وقال الفرّاء : المَحالة على ثلاثة أقسام؛ هى الحِيلة، والّتى تجعل على رأس البئر كالبَكْرة،وواحدة مَحال الظهر وهى فَقاره . ويقال : أخذت فى الحوْلَقة والحوقلة ،إذا قلت: لاحول ولا قوّة إلا بالله ، وينتصب « لا حولَ ولا قوّة » بالتبرئة ، وإن شئت رفعتهما بالابتداء ، « وبالله » خبر « قوّة » ، وحُذفت خبر « لاحول » لدلالة الثانى عليه ، وإن شئت رفعت «حول » بالابتداء ، ونصبت « قوة » بالتبرئة ، وإن شئت نصبت « حولا » بالتبرئة ورفعت « قوّة » بالعطف على موضع « لا حول » ، وإن شئت نصبت«قوّة» بالتنوين عطفاً على اللفظ .

قوله : «صافٍ » ، أى خالص الودّ .مصافٍ : صادقٌ فى ودّه. مَعين : ماء كثير ، يريد صاحبَ كرم كثير . مُعين : يُعين بماله . المساوى : ضد المحاسن ، واحدها « سوء » على غير قياس ، وقيل لا واحدَ لها . بدا : ظهر . الثمين : النفيس الغالى الثمن ؛ يقول : إنّ الناس قد استووا فى الأفعال السيّئة ، وأراد قوله صلى الله عليه وسلم : « لا يزال الناس بخير ما تباينوا ، فإذا استَوَوْا هلكوا » ، ومعناه أنّ الناس فى الغالب إنّما يتساوون فى الشرّ ، ولا تجدهم كلّهم فضلاء لأنّ الخير قليل .

قال أبو العباس التُّطيلىّ فيما يتعلّق بهذا المعنى :

والنّاس كالناس إلاّ أنْ تجرِّبَهُمْ ... وللبصيرة حكم ليس للبَصرِ[1]

كالأيك مشتبهاتٌ فى منابتها ... وإنما يقع التفضيلُ بالثمرِ

وقال التّهامىّ :

(١) ديوانه ٤٨

ومِنَ الرِّجالِ معـالمٌ ومجاهلٌ ومن النّجوم غوامضٌ ودَرَارِى[1]
ولربّما اعتضد الحليمُ بجاهـلٍ لا خير فى يُمنَى بغير يسَارِ
والنّاس مشتبهون فى إيرادهمْ وتفاضلُ الأقوام بالإصْـــدَارِ

* * *

ثُمَّ قالَ لها : مَنِّى النَّفْسَ وَعِدِيهَا ، وَاجْمَعِي الرِّقاعَ وُعُدِّيها ، فقالَتْ : لَقدْ عَدَدْتُها لمَّا اسْتَعَدْتها ، فَوَجَدْتُ يَدَ الضَّياعِ ، قَدْ غالَتْ إحْدَى الرِّقاعِ ، فقالَ : تَعْسًا لَكِ يالَكاعِ ، أنْحَرَمُ وَيْحَكِ الْقَنَصَ وَالْجِبالَةَ ، وَالْقَبَسَ وَالذُّبالَةَ ! إنَّها لَضِغْثٌ عَلَى إبَّالَةٍ . فانْصاعَتْ تَقْتَصُّ مَدْرَجَها ، وَتَنْشدُ مَدْرجَهَا ؛ فلمَّا دَانتنِي قَرَنْت بالرُّقْعَةِ ، دِرْهَماً وَقِطْمَةَ ، وَقُلْتُ لها : إن رَغِبْتِ فى الْمشَوفِ الْمُعْلَمِ - وَأَشَرْتُ إلى الدِّرْهَمِ - فَبُوحِى بالسرِّ الْمُبْهَمِ . وَإنْ أَبَيْتِ أنْ تَشْرَحِى ، فَخُذِى الْقِطْعَةَ وَاسْرَحِى . فَمالَتْ إلى اسْتِخلاصِ الْبَدْرِ التَّمِّ ، والأبْلَجِ الهِمِّ ، وقالت : دَعْ جِدَالَكَ ، وَسلْ عَمَّا بدَالك ، فاسْتَطْلعْتُها طِلْعَ الشَّيخ وَبلدَتِهِ ، وَالشِّعرِ وناسِجِ بُردَتِه .

* * *

قوله : «عِديها» ، أى طمّعيها . استعدتها : رددتها . غالت : أهلكت ، واستعار للتضييع «يداً» مجازاً . تعساً : هُلْكاً ، والتّعس : الدّعاء ألاّ تقال عثرتُه . يالكاعِ : يا لئيمة يا مُنتِنة ، واللّكاع : وسخ الفرْج . واللُّكع : ولد الحمار . القَنَص : الصيد .

(١) ديوانه ٥٦

الحُبالة : الشبكة ، وصفة الحُبالة أن يُعمد لحبل من شعر مخلوط بيسير من صوف ، فذلك أقوى له ، فيعقد فى أحدِ طرفيه عين يجرى فيها الحبل ، ويربط فى الطرف الثانى خشبة ، وربّما حدّدوا طرفها ، ثم يأتون إلى الطريق الذى يدخل منه الصيد إلى الماء فيحفرون فيه حفرة فيغطّونها بورق الشجر وشبهها ، ويفتحون عليها عين الحبل ، ثم يغطّونها بالتراب والزّبل ، حتى تصير فى طبع الأرض ، فإذا أقبل الصيد للماء ، فوضع يده أو رجله فى الحفرة ، سقطت به ، وانضمّ على يده أو رجله الحبل ، فيثب فازعاً ويفرّ ، فتتبعه تلك الخشبة ، فكلّما انتفض أقبلت عليه ، فتضربه بين يديه ورجليه وبطنه وظهره ، فتوهى أعضاءه ، وربّما كسرت يديه أو رجليه ، فلا يسير بها قدْر ميل ، حتى يقف موقوذاً منها ، فيأتيه الصائد فيأخذه ، وأنواع الحُبالة كثيرة .

قوله : «القبَس» ، يريد به نور المصباح . والذُّبالة : الفتيلة . ضِغْث : حُزمة من حشيش صغيرة ، وأصلها جماعة القضبان ، وشبهها من النبات ، يجمعها أصل واحد ، وكلّ ما جمعت عليه كفّك من حشيش أو عيدان فانتزعتَه من أصله ضغث . إبّالة : حُزمة كبيرة ، والضِّغث على الأبّالة مثل حزمة الحطّاب إذا حملها للبيع ، وجعل فوقها حُزيمة صغيرة لنفسه ؛ فالكبيرة إبّالة والصغيرة صِغْث ، فكأنه قال : إنها خسارة على خسارة ، ويقال لها : إبالة وأبيل وأبيلة ، وضِغْثٌ على إبّالة ، مَثَل أخذه من قول الشاعر :

فى كلِّ يوم من ذُؤالَهْ ضِغْثٌ يزيد على إبَّالَهْ[1]

وقال آخر وذكر ناقته :

رَدّتْ عوارِىَ غيطانِ الفَلا ونجتْ بمثل إبّالةِ من خالصِ الشَّعَرِ

وهذا مثل قول حَبيب :

(١) الميدانى ١ : ٤١٥ من غير نسبة واللسان ـ أبل ، ونسبه إلى أسماء بن خارجة ـ

فكم جزْعِ وادٍ جَبّ ذِروة غارب وبالأمس كانت أتمكته جوانبُه[1]

قوله : «انصاعت» ، أى ذهبت نافرة وانثنت مسرعة ، وكلّ ماثنيته ولويته بسرعة ؛ فقد صعته صوعاً ، وكذلك إذا جمعته وفرّقته ، فذهب عنك بسرعة ، وصاع الشجاع القوم فى الحرب ؛ إذا جمعهم بهيبته ثم صدمهم ، ففروا سراعاً متفرّقين . وكلّ نافرٍ مسرعٍ منصاع ، وقال ذو الرمّة فى الخمر :

رَمَى فأخطأ والأقدارُ غالبةٌ فانْصَعْنَ والويْلُ هجّيراه والحَرَبُ[2]

تقتصّ ، أى تتبع . مدرجها : طريقها التى مشت فيها لتفريق الرقّاع ، ويقال: دَرج الشيخ والصبىّ درجاً ودَرَجاناً ، إذا تقاربتْ خُطاهما ، والمدْرَج: الموضع الذى دَرَجا فيه ، والمدرَجة: قارعة الطريق. تنشد: تطلب من نشدْت الضَّالّة، ومُدْرجها: رقعتها ، ويقال : أدرجت الكتاب والثوب طويتهما . القِطْعة : عند أهل المشرق: الواحدة مَنْ صرف يعرّفونه الخندوس ، يعمدون إلى دراهمه فيقطعونها قطعاً ، فهى صرفهم ، وبها يتصدقون ، فأراد أنه قرن برقعة الشعر درهما ، وقطعة من الخندوس ، وقال لها : إن خبّرتنى بقائل الشعر ، فخذى الدرهم أجرة ، وإن أبيت أن تعرّفينى به فخذى القطعة صدَقة وانصرفى . المشوف : المصقول المجلوّ ، والشوف: الجلاء ، والمعلَم : المنقوش ، ونقشه علامته ، وقيل : هو الذى عليه علامة الملك ، وأخذه من قول عنترة :

ولقد شربتُ من المُدامة بَعْدَمَا ركَدَ الهواجِرُ بالمشُوف المُعلَمِ[3]

---

(١) ديوانه ٤٤ . جزع الوادى : جانبه . جبّ : قطع . الذروة: أعلى شىء . الغارب : الكاهل . أتمكته : رفعته . وفى الديوان: « أمسكته جوانبه »

(٢) ديوانه ٩٦ ، وانظر حواشيه .

(٣) من المعلقة ٢٥٨ بشرح التبريزى .

بُوحى . تـكلّمى . المبهم : المغلق الملبس . أبيْتِ : امتنعت . اسرحى : اذهبى . اسخلاص : تخليص ، واستخلص الشيء ، جعله خالصاً . التّمّ : الكامل . والأبلج : النقيّ الأبيض ، وفعله ابلاجّ كاحمارّ . الهِمّ : الكبير الذى يهمّ به مَنْ رآه ، وشيخ هِمّ : مسنّ ، والهِمّ : الرقيق النحيف ، وهو من همته النار إذا أذابته ، وهَمَمت الشحم : أذبته . استطلعتها طِلْعهُ : استخبرتها خبره ، وسألتها أن تطلعنى عليه ، وتقول : استطلعت طِلع الشيء ، إذا حاولتَ الاطلاع عليه ، وأردت معرفة خبره الّذى تطلع منه عليه ، وطِلْع بالكسر . بُرْدته : ثوبه .

* * *

فقالَتْ : إِنَّ الشَّيخَ مِنْ أَهلِ سَرُوجَ ، وَهُوَ الَّذِى وَشَّى الشِّعْرَ المَنْسُوجَ ، ثُمَّ خَطِفَتِ الدِّرْهَمَ خِطْفَةَ البَاشِقِ ، وَمَرَقَتْ مُرُوقَ السَّهْمِ الرَّاشِقِ ، فَخالجَ قلْبِى أَنَّ أَبا زَيْدٍ هُو المُشارُ إِليهِ ، وَتأَجَّجَ كَرْبِى لِمُصابِهِ بِناظِرَيهِ ، وَآثَرْتُ أَن أُفاجِيهِ وأُناجِيهِ ، لِأَعْجَمَ عُودَ فِراسَتِى فِيهِ ، وَمَا كُنْتُ لِأَصِلَ إِلَيهِ إِلاَّ بِتَخَطِّى رِقابَ الجَمعِ ، المَنْهِىِّ عَنْهُ فِى الشَّرْعِ ، وَعِفْتُ أَنْ يَتأَذَّى بِى قَوْمٌ ، أَوْ يَسْرِىَ إِلَىَّ لَوْمٌ ، فَسَكَنْتُ بِمَكانِى ، وَجَعَلْتُ شَخْصَهُ قَيْدَ عِيانِى ، إِلَى أَنِ انْقَضَتِ الخُطْبَةُ ، وَحَقَّتِ الوَثْبَةُ ، فَخَفَقْتُ إِلَيهِ ، وَتَوَسَّمْتُهُ عَلَى التِحامِ جَفْنَيهِ ، فإِذَ أُمْنِيَّتِى أُمْنِيَّةُ ابنِ عَبَّاسٍ ، وَفِراسَتِى فِراسَةُ إِياسٍ .

* * *

وشَّى : زيّن ورقّم . خطَفت : أخذت بسرعة . الباشق : من جوارح الطير . مرقت : خرجت بسرعة . الرّاشق : الّذى يرشق الصيد ، أى ينشبه ،

ويكون الراشق بمعنى المرشوق ، كقوله تعالى : ﴿من ماء دافق﴾[1] ، أى مدفوق.
قوله : «خالج» ، أى داخل وجاذب . تأجّج : اشتعل . كربى : هَمّى ، والتأجّج «التفعّل» من الأجيج ، وهو تصويت النار ولهبها إذا اشتعلت وعظمت . آثرت : اخترت وفضّلت ، وآثرته بكذا: فضّلته به والإيثار المصدر . أفاجيه : آتيه فجأة وهو لا يشعر . أناجيه : أحدّثه . أعجُم : أجرّب . فِراستى : نظرى ، وجعل لها عوداً مجازاً . تخطّى رقاب الجمع : الجواز على أعناق الناس ؛ خرّج الترمذىّ فى النهى عن ذلك ، قال : قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تخطّى رقاب الناس يوم الجمعة اتّخذ جسراً إلى جهنم » .

عفت : كرهت . يتأذّى : يصيبهم أذى. يسرِى : يصل. اللوم : ضدّ الحمد ، وهو أن تأخذ الإنسان بلسانك ذمًّا لما فعل . شَكَدْتُ : التصقت ولزمت . قيد عيانى : غرض نظرى ، أى قيّدت نظرى فيه . انقضت : تمّت . حقّت الوثبة ، أى وجبت القفزة إليه . خففت : أسرعت . توسّمته : نظرته . التحام : التصاق وانغلاق . ألمعيّتى : ذكائى وصدق ظنّى ، والألمعىّ ، هو الذى يظن بك الظّنّ ، ولا يخطىء ، وهو اليلمعىّ من اللّمعان ، كأنه يلمع لذكائه وجودة فطنته ، وقال أوس :

الألمعىّ الذى يَظُنّ بك الظَّنّ كأَنْ قد رأَى وقد سَمِعَا[2]

ولا يبيّن أحد الألمعىّ بأحسن مما بيّنه أوس ، فإذا سُئلت : ما الألمعىّ ؟ فأنشدت بيته تأت بالجواب الشافى .

والفِراسة ، أن تنظر الشىء فتستدلّ بظاهره على باطنه ، وبما حضر على ما غاب ، وقيل : الألمعيّة أن ترى الشىء على بُعْد فتعرفه وتحقّقه ، والفِراسة أن ترى الرجل بين يديك فتحكمَ عليه بما أضمر ، أو بما يريد أن يفعله ، فالألمعيّة فى البعد، والفراسة فى القرب ، وكيف اختلفت الألمعيّة والفراسة ، فالظنّ الصادق يجمع بينهما.

(١) سورة الطارق ٦ . (٢) ديوانه ٥٣ .

[ذكر ابن عباس وبعض أخباره]

وابن عباس رضى الله عنه ، هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم القرشىّ الهاشمىّ ، يكنى أبا العباس .

ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، وكان ابن ثلاث عشرة سنة يوم توفّى رسول الله صلى الله عليه وسلم . واختُلف فى السنة التى مات فيها ، ما بين ثمان وستين فى الأقل ، وأربع وسبعين فى الأكثر . وصلّى عليه محمد بن الحنفيّة ، وقال : اليوم مات ربانىّ هذه الأمة ، وضُرِبَ على قبره فسطاط .

روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال : «اللّهم علّمه الحكمة وتأويل القرآن » ، وفى حديث آخر : «اللّهم بارك فيه ، وانشر منه ، واجعله من عبادك الصالحين» . وفى حديث آخر : «اللّهمّ زده علماً وفقّهه » ؛ وفى حديث آخر : «اللهم فقّهْهُ فى الدين وعلّمه التأويل » . وكلها أحاديث صحاح .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يحبّه ويُدنيه ويقرّبه ويشاوره ، مع وفور جِلّة الصحابة رضى الله عنهم .

وكان ابن عمر رضى الله عنه يقول : ابن عباس فتى الكهول ، له لسان سَئول ، وقلب عَقول .

عبد الله بن عبدالله : ما رأيت أحداً كان أعلَمَ بالسّنة ، ولا أجلَد رأياً ، ولا أثبت نظراً من ابن عباس .

ولقد كان عمر يعدّه للمعضلات ، مع اجتهاد عمر ونظره للمسلمين .

عمرو بن دينار : ما رأيت مجلساً كان أجمعَ لكلّ خيرٍ من مجلس ابن عباس ، الحلال والحرام والعربيّة والأنساب والشعر .

عطاء : كان الناس يأتون ابنَ عباس فى الشّعر والأنساب ، وناس يأتُونه

لأيام العرب ووقائعها ، وناسٌ يأتونه للعلم والفقه ، فما منهم صِنف إلا يُقبل عليهم بما يشاءون .

مسروق : كنتُ إذا رأيت ابنَ عباس ، قلت : أجمل الناس ؛ فإذا تكلّم قلت : أفصح الناس ، فإذا تحدث قلت : أعلم الناس .

أبو وائل : خَطَبنا ابن عباس رضى الله عنهما ، وهو على الموسم ، فافتتح سورة، فجعل يقرأ ويفسّر ، فجعلت أقول : ما رأيتُ ولاسمعت كلام رجلٍ مثله ، لو سمعته فارس والترك والروم لأسلمت .

طاوس : أدركت نحو خمسمائة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا ذكروا ابنَ عباس خالفوه ، فلم يزل يقودهم حتى ينتهُوا إلى قوله .

ابن مسعود : نِعْمَ تَرجمان القرآن ابن عباس ، ولو أدرك أسناننا ماعاشره منّا رجل .

يزيد الأصمّ : خرج معاوية حاجًا ، ومعه ابن عباس ، فكان لمعاوية موكب ، ولابن عباس موكب ممّن يطلب العلم .

القاسم بن محمد : ما رأيتُ فى مجلس ابن عباس باطلاً قطّ ، وما سمعت فتوى أشبه بالسنّة من فتواه .

وكان أصحابه يسمونه الحَبْر والبَحْر . وذكر أبو العباس فى الكامل أن عمر بن أبى ربيعة أنشده قصيدته :

أمِنْ آل نعمٍ أنْتَ غادٍ فمبكرُ غَدَاة غدٍ أم رائحٌ فمهجِّرُ

فحفظها مَنْ سمعها ، وهى ثمانون بيتاً[1] .

(١) الكامل للمبرد ٣ : ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، وفى آخره بعد أن أورد أبياناً من القصيدة : «فقال له ابن الأزرق — وقد كان حاضراً فى المجلس : فقد أنت يابن عباس ! أنضرب إليك =

مجاهد عن ابن عباس رضى الله عنهما : رأيتُ جبريل عليه السلام عند النّبىّ صلى الله عليه وسلم مرتين ، ودعا لى بالحِكْمة رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين .

وروى عنه أنه رأى رجلاً مع النبىّ صلى الله عليه وسلم فلم يعرفه ، فسأل عنه النبىّ صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : أرأيته ؟ قال: نعم ، قال :ذاك جبريل ، أمّا إنّك ستفقد بصرك ؛ فعمِىَ بعد ذلك فى آخر عمره ، وهو القائل فى ذلك ـ ويروى لحسان رضى الله عنهما :

إن يأخذِ الله من عينىّ نورَهما ... ففى لسانى وقلبى منهما نُورُ[1]

قلبٌ ذكىٌّ وعقل غير ذِى دَخَلٍ ... وفى فمى صارمٌ كالسيف مأثورُ

نظر إليه الحطيئة فى مجلس عمر رضى الله عنهما ، فقال : مَنْ هذا الذى برع الناس بعلمه ، ونزل عنهم بسنّه ؟ فقيل له : عبد الله بن عباس .

وقال فيه حسان بن ثابت رضى الله عنهما :

إذا مَا ابنُ عبّاسٍ بَدَا لك وجهُه ... رأيتَ لَهُ فى كلّ أحواله فَضْلاَ[2]

إذا قال لم يترك مقالاً لقائلٍ ... بمنتطحاتٍ لاترى بينها فَصْلاَ[3]

كفَى وشفَى مافى النفُوسِ ولم يَدَعْ ... لذِى إرْبَةٍ فى القول جِدًّاولاهَزْلاَ

= أكباد الإبل ، نسألك عن الدين فتعرض ، ويأتيك غلام من قريش فينشدك سفهافتسمعه! فقال : تالله ما سمعت سفها ، فقال ابن الأزرق : أما أنشدك :

رأتْ رجلاً أمّاإذا الشمسُ عارضَتْ ... فيخزَى، وأمابالعشىّ فيخسرُ

فقال : ما هكذا قال ؛ إنما قال : « فيضحى وأما بالعشى فيخصر » فقال : أوتحفظ الذى قال ؟ قال : والله ما سمعتها إلا ساعتى هذه ، ولوشئت أن أرددها لرددتها ، قال: فارددها ، فأنشده إياها كلها.

(١) ديوان حسان ١٦٢.

(٢) ديوانه ٣٥٩ ، ولم يرد فيه البيت الأول .

(٣) الديوان : « بمنتقطات » .

سموتَ إلى العليا بغير مشقّـة فنلتَ ذَراها لا ذليلا ولا وَغْلا[1]

ونظر إليه معاوية يوماً يتكلّم معه ، فأتبعه بصره ، فقال متمثّلاً :

إذا قال لم يترك مقالاً لقائـلٍ مصيب ولم يثن اللّسان على هُجْرِ
يصرِّف بالقول اللّسانَ إذا انتحى وينظر فى أعطافه نظرَ الصَّقْرِ

وروى أن طائراً أبيض خرج من قبره ، فتأوّلوه عِلمَه خرج إلى الناس .

وقيل : دخل قبرَه طائر أبيض ، فقيل : هو بصره .

وقال أبو الزبير : مات ابن عباس رضى الله عنهما بالطائف ، فجاء طائر أبيض فدخل فى نعشه حين حُمِل ، فما رُئى خارجاً منه .

وفضائله كثيرة مشهورة ، فلنقف منها على هذا القدر .

[ذكر إياس القاضى]

وأما إياس ، فهو أبو وائلة بن معاوية بن قرة بن إياس بن هلال بن رباب المزنىّ ، قاضى البصرة . وسبب قضائه أنّ عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كتب إلى عدىّ بن أرطاة عامله على البصرة ؛ أن اجمع إياس بن معاوية المزنىّ والقاسم ابن ربيعة الحارثىّ ، فولِّ القضاء أنفذَهما وأفقههما . فجمع بينهما ، فقال كلّ واحد : إنّ صاحبَه أنفذ وأفقه ، فقال له إياس : سلْ عنّى وعن القاسم فقيهَىِ المصر : الحَسَن وابن سيرين ـ وكان القاسم يأتيهما وإياس لا يأتيهما ـ فعلم القاسم أنه إن سألهما أشارا به . فقال القاسم : لا تسأل عنى ولا عنه ؛ فوالله الذى لا إله إلا هو ؛ إن إياسًا لأفقهُ منّى ، فإن كنتُ كاذباً فما عليك إلا ألّا تولِّيَنى

(١) الوغل من الرجال : الضعيف الساقط .